

مكتبة مصر

نجيب محفوظ
قصة



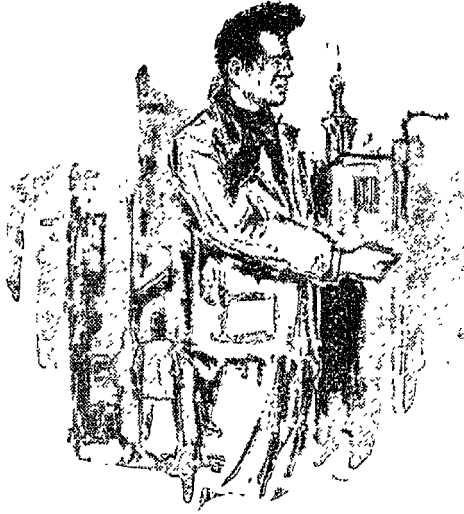
اللعن والكذاب

مكتبة مصر

اللَّهُ وَالْكَافِرِينَ



الفصل الأول



مرة أخرى يتنفس نسمة الحرية ، ولكن في الجو غبار خانق
وحر لا يطاق . وفي انتظاره وجد بدلته الزرقاء وحذاءه المطاط ،
وسواهما لم يجد في انتظاره أحدا . ها هي الدنيا تعود ،
وها هو باب السجن الأصم يتعد منطويا على الأسرار اليائسة .
هذه الطرقات المثقلة بالشمس ، وهذه السيارات المجنونة ،

والعابرون والجالسون ، والبيوت والدكاكين ، ولا شفة تفتقر
عن ابتسامة . وهو واحد ، خسر الكثير ، حتى الأعوام الغالية
خسر منها أربعة غدرا ، وسيقف عما قريب أمام الجميع متحديا .
آن للغضب أن ينفجر وأن يحرق ، وللخونة أن يأسوا حتى
الموت ، وللخيانة أن تكفر عن سحنتها الشائثة . نبوية عlish ،
كيف اقلب الاسمان اسما واحدا ؟ ، أتتما تعملان لهذا اليوم
ألف حساب ، وقدما ظننتما أن باب السجن لن يفتح ، ولعلكما
تترقبان في حذر ، ولن أقع في الفخ ، ولكنى سأقتض في الوقت
المناسب كالقدر . وسناء اذا خطرت في النفس انجاب عنها الحر
والغبار والبغضاء والكدر . وسطح الحنان فيها كالنقاء غب
المطر . ماذا تعرف الصغيرة عن أبيها ؟ .. لا شيء ، كالطريق
والمارة والجو المنصر . طوال أربعة أعوام لم تغب عن باله ،
وتدرجت في النمو وهى صورة غامضة ، فهل يسمح الحظ
بمكان طيب يصلح لتبادل الحب ، ينعم فى ظله بالسرور المظفر ،
والخيانة ذكرى كريهة بائدة ؟ . استعن بكل ما أوتيت من دهاء ،
ولتكن ضربتك قوية كصبرك الطويل وراء الجدران . جاءكم
من يعوص فى الماء كالسمكة ويطير فى الهواء كالصقر ويتسلق
الجدران كالنار وينفذ من الأبواب كالرصاصة . ترى بأى وجه
يلقائك ؟ ، كيف تتلاقى العينان ؟ ، أنسيت يا عlish كيف كنت
تتمسح فى ساقى كالكلب ؟ ، ألم أعلمك الوقوف على قدمين ؟ ،
ومن الذى جعل من جامع الأعقاب رجلا ؟ ، ولم تنس وحدك

يا عيش ولكنها نسيت أيضا ، تلك المرأة النابتة في طينة تنمة
اسمها الحيانة . ومن خلال هذا الكدر المنتشر لا يبسم الا
وجهك يا سناء ، وعمما قريب سأخبر مدى حظى من لقيالك ،
عندما أقطع هذا الشارع ذا البواكى العابسة ، طريق الملاهى
البائدة ، الصاعد الى غير رفعة ، أشهد أنى أكرهك . الحمارات
أغلقت أبوابها ولم يبق الا الحوارى التى تحاك فيها المؤامرات ،
والقدم تعبر من آن لآن ثقرة مستقرة فى الطوار كالمكيدة ،
وضجيج عجلات الترام يكركر كالسب ، ونداءات شتى تختلط
كأنما تنبعث من نفايات الخضر ، أشهد أنى أكرهك . ونوافذ
البيوت المغرية حتى وهى خالية ، والجدران المتجهمه المقشفة ،
وهذه العطفة الغريبة عطفة الصيرفى ، الذكرى المظلمة ، حيث
سرق السارق ، وفى غمضة عين انطوى ، الويل للخونة . فى
هذه العطفة ذاتها زحف الحصار كالثعبان ليطوق الغافل ، وقبل
ذلك بعام خرجت من العطفة ذاتها تحمل دقيق العيد والأخرى
تتقدمك حاملة سناء فى قماطها ، تلك الأيام الرائعة التى
لا يدرى أحد مدى صدقها ، فانطبعت آثار العيد والحب
والأبوة والجريمة فوق أديم واحد . وتراءت الجوامع الشاهقة ،
وطارت رأس القلعة فى السماء الصافية ، وانساب الطريق فى
الميدان ، وتجلت خضرة البستان تحت الأشعة الحامية ، وهبت
نسمة جافة رغم القفيظ منعشة ، ميدان القلعة بكل ذكرياته
المحرقة . وكان على الوجه الذى لفتحته الشمس أن ينبسط

وأن يصب ماءً بارداً على جوفه المستعر كي يبدو مسالماً أليفاً
فيمثل دوره المرسوم كما ينبغي . واجتاز وسط الميدان متجهاً
نحو سكة الامام . ومضى فيها يقترب من البيت ذي الأدوار
الثلاثة في نهايتها وعلى مفرق عطفين جانبيين يتفرع اليهما
الطريق الأول . في هذه الزورة البريئة سيكشف العدو عما
أعدّه للقاء ، فادرس طريقك ومواقعه ، وهذه الدكاكين التي
تشرئب منها الرءوس كالقيران المتوجسة . وجاءه صوت من
وراء يقول :

— سعيد مهران ! .. ألف نهار أبيض ..

توقف عن المسير حتى أدركه الرجل فتصافحا وهما يعطيان
على انفعالاتهما الحقيقية بانسامة باهتة . اذن بات للوغد
أعوان ، وسيرى قريباً ما وراء هذا الاستقبال ، ولعلك تنظر
من الشيش مستخفياً كالنساء يا عليش .

— أشكرك يا معلم بياظة ..

ولحق بهما كثيرون من الدكاكين على الجانبين ، وارتفعت
حرارة التهاني ، وسرعان ما وجد نفسه مطوقاً من جميع الجهات
بحشد من أصدقاء غريمه ولا شك ، واستبقت الحناجر قائلة :

— الحمد لله على سلامتك ..

— مبارك للأصدقاء والأحباب ..

— قلنا من القلوب سيفرج عنه في عيد الثورة ..

فقال وهو يتفحصهم بعينه اللوزيتين العسليتين :

— الشكر لله ولكم ..

فربت بياظة على منكبه قائلاً :

— تعال الى الدكان لشرب الشربات !

فقال بهدوء :

— فيما بعد ، عند العودة ..

— العودة ؟ !

وصاح أحد الرجال موجهًا حنجرته الى الدور الثاني من

البيت :

— يا معلم عيش ! .. يا معلم عيش انزل هنيء سعيد

مهران !

لا داعى للتحذير يا خنفساء . انى قادم فى ضوء النهار .

وأعلم أنكم تترقبون . وعاد بياظة يتساءل :

— العودة من أين ؟

— لدى حساب يجب أن أسويه ..

فتساءل بوجه ممتعض :

— مع من ؟

— أفسييت أنتى أب ؟ .. وأن ابنتى الصغيرة عند عيش ؟

— نعم ، ولكل خلاف حل فى الشرع ..

وقال آخر :

— والتفاهم خير ..

وثالث قال بنبرة المسالم :

— سعيد أنت قادم من السجن والعاقل من اعطى !
فقال وهو يدارى حنقه المختنق :

— من قال انى جئت لغير التفاهم ؟ !
وفتحت نافذة من الدور الثانى وأطل منها عيش فارتفعت
الرءوس اليه فى توتر . وقبل أن تبدر كلمة خرج من باب البيت
رجل طويل عريض ، فى جلباب مقلم ، ينتعل حذاء حكوميا
.فعرف سعيد فيه المخبر حسب الله ، وسرعان ما تظاهر بالدهش
وقال منفعلا :

— ماذا دعا الى افلاقك وما جئت الا للتفاهم ؟
فمضى نحوه مسرعا وتحسسه مفتشا عما يريب فى صدره
أو جيوبه ، فعل ذلك بمهارة وخفة ودربة وهو يقول :

— اسكت يا بن الثعلب ، ماذا تريد ؟

— جئت للتفاهم على مستقبل ابنتى ..

— أنت تعرف التفاهم ا

— نعم ، من أجل ابنتى ..

— عندك المحكمة ..

— سأجأ اليها عند اليأس !

وصاح عيش من أعلى :

— دعه يدخل ، تفضلوا ..

اجمعهم حولك يا جبان . انما جئت أجس حصونك . وعند
الاجل لا ينفع مخبر ولا جدار . ودخلوا حجرة الاستقبال

فتفرقوا فوق الكنب والمقاعد . وفتحت النوافذ فاندفع الضوء والذباب ، وتبدت في البساط السماوى قطط سود من أثر حروق . وحملق عيش من صورة كبيرة في الجدار معتمدا يقبضتية عصا غليظة . أما المخبر فقد جلس الى جانب سعيد وراح يعث بعثات مسبحة . ودخل عيش سدره في جلباب فضفاض منتفخ حول جسم برميلي ، رافعا وجها مستديرا ممثلى اللغد تحت ذقن مربعة وأنف غليظ محطم المرين ، صافح سعيد متظاهرا بالشجاعة وقال :

— حمد الله على سلامتك !

وسرعان ما تأزم الجو بالصمت وتبودلت نظرات قلقة حتى عاد عيش يقول وكأنما يرغب في فتح صفحة جديدة :

— ما فات فات ، وكل ما حصل يقع كل يوم ، وقد تحدث أمور مؤسفة وتنهار صداقات قديمة ، ولكن لا يعيب الرجل الا العيب !

بدا سعيد وهو يتابعه بعينه البراقتين وجسمه النحيل القوى كأنه نمر يتربص بفيل ، ولم يسعه الا أن يردد قوله :

— لا يعيب الرجل الا العيب ..

وحدجته أعين كثيرة عقب ترديده ، وكفت يد المخبر عن العبث بعثات المسبحة فأدرك هو ما يجول بختاظرهم فقال مستدركا :

— أوافقك على ما قلت حرفا بحرف ..

فقال المخبر بضجر :

— ادخلوا فى الموضوع واعفونا من اللف ..

فتساءل سعيد بسخرية خفية :

— من أى ناحية ؟

— ناحية واحدة هى التى يجوز الكلام فيها وهى ابنتك !

وزوجتى وأموالى يا جرب الكلاب ! . الويل .. الويل .
أريد أن ألتقى نظرة من عينيك . كى أحترم من الآن فصاعدا
الخنساء والعقرب والدودة . سحقا لمن يطرب لأنعام امرأة .
لكنه هز رأسه بالايجاب ، فقال أحد ماسحى الجوخ :

— بنتك فى الحفظ والصون ، مع أمها ، وشرعا يجب أن
تبقى مع أمها بنت ستة أعوام ، وان شئت أزورك بها كل
أسبوع ..

فرفع سعيد صوته متعمدا ليسمع من فى الخارج :

— شرعا هى حق لى لشتى الملابس والظروف ..

فتساءل عيش فى غلظة :

— ماذا تقصد ؟

ولكن المخبر عاجله قائلا :

— لن يجىء من الكلام الا وجع الدماغ ..

فقال عيش بيقين :

— لم أرتكب جريمة ولكنها القسمة والنصيب ، والواجب

أيضا ، واجب المروءة دفعنى الى ما فعلت ، ومن أجل البنت الصغيرة أيضا !

واجب المروءة يا ابن الأفعى ! . الغدر والخيانة المزدوجة .
المطرقة والفأس وجبل المشنقة . ولكن ما شكل سناء الآن ؟ .
وقال بهدوء ما استطاع :

— لم أتركها في حاجة ، كانت لديها أموالى ، أموال طائلة ..

فهتف المخبر :

— تقصد مسروقاتك ؟ ! تلك التى أنكرتها فى المحكمة !

— ليكن ، ولكن أين ذهبت ؟ !

فصاح عليش :

— ولا مليم ! ، صدقونى يا رجال ، كانت الحال لا يسر

بها عدو ولا حبيب ، وحقا قمت بالواجب ..

فتساءل سعيد فى تحد :

— خبرنى كيف أمكنك أن تعيش فى سعة وأن تنفق

على الآخرين ؟

فصاح عليش محتدا :

— هل أنت ربنا حتى تحاسبنى ؟

وقال رجل من ماسحى الجوخ :

— اخز الشيطان يا سعيد ..

وقال المخبر :

— أنا عارفك وفاهمك ، أنا خير من يقرأ داخل رأسك ،
ولكنك ستهلك نفسك ، لا تخرج عن موضوع البنت فهذا
خير لك ..

فتراجع سعيد باسمه وهو يخفى عينيه في الأرض وقال
باستسلام :

— بالحق نطقت يا حضرة المخبر ..

— أنا عارفك وفاهمك ولكنني سأماشيك احتراماً لهؤلاء
الرجال ، هاتوا البنت ، أليس الأفضل أن نعرف رأيها أولاً ؟
— كيف يا حضرة المخبر ؟

— يا سعيد أنا فاهمك ، أنت لا تريد البنت ، ولا تستطيع
أن تأويها ، ولن تجد لنفسك مأوى إلا بعد الجهد ، ولكن من
العدل والرحمة أن تراها ، هاتوا البنت ..

بل هاتوا أمها . كم أرغب أن تلتقى العينان . كي أرى سرا
من أسرار الجحيم . الفأس والمطرقة . وقام عليش ليحيى بها .
وعندما ترامى وقع الأقدام القادمة خفق قلب سعيد خفقة
موجعة وتطلع الى الباب وهو يعض على باطن شفتيه . مسح
تطلع شيق وحنان جارف جميع عواطف الحنق . وظهرت البنت
بعينين داهشتين بين يدي الرجل ، ظهرت بعد انتظار طال ألفه
سنة . وتبدت في فستان أبيض أنيق وشبشب أبيض كشف عن
أصابع قدميها المخضوبتين . وتطلعت بوجه أسمر وشعر أسود
مسبب فوق الجبين فالتهمتتها روجه . وجعلت تقلب عينها في

الوجوه بغرابة ، وفى وجهه خاصة باستنكار لشدة تحديفه
ولشعورها بأنها تدفع نحوه ، واذا بها تفرمل قدميها فى البساط
وتميل بجسمها الى الورا . لم ينزع منها عينيه ولكن قلبه
انكسر ، انكسر حتى لم يبق فيه الا شعور بالضياح . كأنها
ليست بابنته . رغم العينين اللوزيتين والوجه المستطيل والأف
الأقنى الطويل . وفداء الدم والروح ما شأنه ؟ . أم هو الآخر
قد خان وغدر ؟ . وكيف له رغم ذلك كله بمقاومة هذه الرغبة
الجائحة فى ضمها الى صدره حتى الفناء ؟ .

وقال المخبر بضجر ودون اكتراث :

— أبوك يا شاطرة !

وقال عليش بوجه لا يبين عن شيء :

— سلمى على بابا ...

كالفأرة ! . مم تخاف ! . ألا تدرى كم يحبها ! . ومد
نحوها يده ولكنه بدل الكلام شرق فازدرد ريقه . وابتسم فى
رقة واغراء . وقالت سناء لا . وتحركت لتسبل راجعة لولا
الرجل وراها . وهتفت « ماما » فدفعها الرجل برقة وهو
يقول :

— سلمى على بابا ..

وتجلت فى الأعين نظرات اهتمام ، وشماتة . وآمن سعد
بأن جلد السجن ليس بالقسوة التى كان يظنها . وقال متوسلا :

— تعالى يا سناء ..

ولم يعد يحتمل رفضها فقام نصف قومة ومال نحوها
فهتفت :

— لا ..

— أنا بابا .

فرفعت عينيها الى عيش سدره مستغربة فقال سعيد
باصرار :

— أنا بابا ، أنا ، تعالى ..

فتأبّت واشتد ميلها الى الورا . جذبها نحوه بشيء من
القوة . صرخت . ضمها الى صدره فدافعته باكية . ومال نحوها
ليلثم — رغم هزيمته ويأسه — فاها أو خدها ولكن شفثيه لم
تلثما الا ساعدها المتحرك في عصبية غير راحمة .

— أنا بابا ، لا تخافى ، أنا بابا ..

وأفعمت رائحة شعرها روحه بذكرى أمها فتقبضت
أساريه . وازدادت البنت مدافعة وبكاء حتى قال المخبر :

— على مهلك ، البنت لا تعرفك ..

فتركها تجرى يائسا ، ثم اعتدل في جلسته وهو يقول
بغضب :

— سوف آخذها ..

ومضت هنيهة صمت قبل أن يقول له بياظة :

— هدىء نفسك أولا ..

فقال باصرار :

— لا بد أن تعود الى ..

فقال المخبر بحدة :

— دع القرار للقاضي ..

ثم التفت نحو عlish متسائلا :

— نعم ؟

فقال عlish :

— الأمر لا يخصني في شيء ولكن أمها لن تفرط فيها

الا بالشرع ..

فقال المخبر :

— كما قلت أول الأمر ، كلمة واحدة لا ثانی لها ، وهى

المحكمة !

وشعر سعيد بأنه لو تمادى فى الغضب لانفجر جنونه

فتسلط على مشاعره بقوة غير طبيعية مذكرا نفسه بأشياء كاد

ينساها ، وقال بهدوء نسبي :

— نعم المحكمة !

فقال بياظة :

— والبنت كما ترى تعيش فى رعاية وراحة ..

وقال المخبر فى لهجة لم تخل من سخرية :

— ابحث أولا عن طريق مستقيم تأكل منه لقمتهك ..

رغم هذا بدا أنه يسيطر على نفسه أكثر فأكثر حتى قال :

— نعم ، كل هذا حق ، ولا داعى للأسف من ناحيتى ،

وسأعود التفكير في الأمر كله ، ولا شك أنه خير أن أنسى
الماضى وأن أبحث عن عمل حتى أهيبء للبتت مكانا طيبا في
الوقت المناسب .

وساد الصمت دهشة فتبودلت نظرات مصدقة وغير
مصدقة ، وكوّر المخبر قبضته على المسبحة متسائلا :

— انتهينا ؟

فقال سعيد :

— نعم ، ولكنى أريد كتنبى ..

— كتبك ! ؟

— نعم ..

فصاح عليش :

— ضاع أكثرها بيد سناء وسأحضر لك ما بقى منها ..

وغاب الرجل برهة ثم عاد حاملا على يديه عامودا متوسطا
من الكتب ، فوضعه وسط الحجرة . وقام سعيد الى المجموعة
فتناول كتابا اثر آخر وهو يقول بأسف :

— ضاع أكثرها حقا ..

وضحك المخبر متسائلا :

— من أين لك هذا العلم ؟

ثم وهو ينهض معلنا انتهاء المقابلة :

— أكنت تسرق فيما تسرق الكتب ؟

وابتسم الجميع ولكن سعيد أقبل يحمل الكتب دون أن

يبتسم ..

الفصل الثاني

نظر الى الباب المفتوح ، المفتوح دائما كما عهدته من أقصى الزمن ، وهو يقترب منه ضاربا في طريق الجبل . مشوى ذكريات ورحمة في حى الدراسة القائم بين ذراعى المقطم . الأرض أطفال ورمال ودواب وهو من التعب والانفعال يلهث . وجرت عيناه وراء الصغيرات من البنات بلا ملل . وما أكثر الكسالى المستلقين في ظل الجبل بعيدا عن الشمس المائلة . ووقف على عتبة الباب المفتوح قليلا ، ينظر ويتذكر ، ترى متى عبر هذه العتبة آخر مرة ؟ . يا له من مسكن بسيط كالمساكن في عهد آدم . حوش كبير غير مسقوف في ركنه الأيسر نخلة عالية مقوسة الهامة ، والى اليمين من دهليز المدخل باب حجرة وحيدة مفتوح . لا باب مغلق في هذا المسكن العجيب . وخفق قلبه فأرجعه الى عهد بعيد طرى ، طفولة وأحلام وحنان أب وأخبة سماوية . المهتزون بالأناشيد يملئون الحوش والله في أعماق الصدور يتردد . انظر واسمع وتعلم وفتح قلبك .. هكذا كان يقول الأب . وفرحة كالجنة يهتها الحلم والايمان ، وفرحة بالغناء والشاى الأخضر أيضا . ترى كيف حالك يا شيخ على يا جنيدى يا سيد الأحياء ؟ . وترامى اليه صوت من داخل الحجرة وهو

يختم الصلاة فابتسم سعيد ومرق من باب الحجره حاملا كتبه .
هاك الشيخ متربعا على سجادة الصلاة غارقا فى التتمة . وهذه
هى الحجره القديمه لم يكده تغير منها شىء . الحصر جددت
شكرا للمريدين ، وما زال الفراش البسيط لصق الجدار الغربى ،
وشعاع الشمس المائلة ينسكب من كوة عند قدميه ، أما بقية
الجدران فقد اختفى أسفلها وراء أرفف المجلدات ، ورائحة
البخور مستقره كأنما لم تتبخر منذ عشرات الأعوام . تخفف من
حملة واقترب من الشيخ قائلا :

— السلام عليكم يا سيدى ومولاي !

أثم الشيخ تمتته ثم رفع رأسه عن وجه نحيل فائض
الحيوية بين الاشراق تحف به لحيه بيضاء كالهالة . وعلى الرأس
طاقية بيضاء منفرزة فى سوائف كثه فضية . حدجه بعين رأت
الدنيا ثمانين عاما ورأت الآخرة . عين لم تفقد جاذبيتها ونفاذها
وسحرها فلم يملك سعيد من أن يهوى على يده فيقبلها وهو
يدفع دمعة باطنية استقطرها من جو الذكريات والأب والأمل
والسما فى الماضى البعيد .

— وعليكم السلام ورحمة الله ..

هذا صوت زمان ! . ترى كيف كان صوت أبيه ؟ . كأنما
يتذكر صوت أبيه بعينه فيرى وجهه وشفتيه وهما يتحركان
ولكن الصوت انتهى . وأين المريدون ، أين أهل الذكر ،

يا سيدى محمد على بابك ! . وتربع أمامه على الحصيرة وهو يقول :

— أجلس دون استئذان لأنى أذكر أنك تحب ذلك !
شعر بأز الشيخ ابتسم من دون أن ترسم على شفثيه
الغارقتين فى البياض ابتسامة . ترى هل تذكره ؟ . وقال :
— لا تؤاخذنى ، لا مكان لى فى الدنيا الا بيتك ..
ترك الشيخ رأسه يهوى فى صدره وهو يقول بصوت هامس :

— أنت تفصد الجدران لا القلب ..
فتنهذ سعيد ، وبدا لحظة كأنه لم يفهم شيئاً ، ثم قال بصراحة ودون مبالاة :

— خرجت اليوم فقط من السجن ..
فأغمض الشيخ عينيه متسائلاً :
— السجن !

— نعم ، أنت لم ترى منذ أكثر من عشرة أعوام ، وفى تلك الفترة من الزمن حدثت أمور غريبة ، ولعلك سمعت عنها من بعض مرديدك الذين يعرفونى ...
— لأننى أسمع كثيراً لا أكاد أسمع شيئاً ..
— على أى حال لا أحب أن ألقاك متنكراً ، لذلك أقول لك
أنى خرجت اليوم فقط من السجن ..

فهز رأسه فى بطء وهو يفتح عينيه قائلاً فيما يشبه الأسى :

— أنت لم تخرج من السجن ..
فابتسم سعيد . كلمات العهد القديم تتردد من جديد .
حيث لكل لفظ معنى غير معناه . وقال :
— يا مولاي ، كل سجن يهون الا سجن الحكومة ..
فرنا اليه بعين راتقة ثم تتمم :
— يقول ان كل سجن يهون الا سجن الحكومة ..
فابتسم سعيد مرة أخرى . كاد يبأس من التلقى . ثم
تساءل في حرارة :
— هل تذكرتني ؟
فغمغم الشيخ دون مبالاة :
— ولك الساعة التي أنت فيها !
ومع أنه لم يشك في أنه تذكره الا أنه تساءل مستزيذا منه
الثقة :

— وأبى عم مهران الله يرحمه ؟
— الله يرحمنا ..
— ما أجمل الأيام الماضية !
— قل ذلك ان استطعت عن الساعة ..
— ولكن ..
— الله يرحمنا !
— قلت اني خارج اليوم من السجن ..
فهز رأسه في طرب مفاجيء قائلا :

— وقال وهو على الخازوق باسم : جرت مشيئته بأن
تلقاه هكذا ..

أبى كان يفهمك . كم أعرضت عنى حتى خلثك تطردنى
طردا . ورجعت بقدمى الى جو البخور والقلق . هكذا يفعل
موحش القلب الذى لا بيت له وقال :

— مولاي ، قصدتك فى ساعة أنكرتنى فيها ابنتى ..

فقال الشيخ متأوها :

— يضع سره فى أصغر خلقه !

فقال جادا :

— قلت لنفسى اذا كان الله قد مد له فى العمر فتنأجد

ثالباب مفتوحا ..

فقال الشيخ بهدوء :

— وباب السماء كيف وجدته ؟

— لكننى لا أجد مكانا فى الأرض ، وابنتى أنكرتنى ...

— ما أشبهها بك ..

— كيف يا مولاي ؟

— أنت طالب بيت لا جواب ..

فأسند رأسه المفلفل الى يده المعروقة الدكناء وقال :

— كان أبى يقصدك عند الكرب ، وجدت نفسى ..

فقاطعه بهدوء لا يخرج عنه :

— أنت تريد بيتا ليس الا ..

تضاعف شعوره بأنه يعرفه ، وقلق دونما سبب مفهوم ،
وقال :

— ليس بيتا فحسب ، أكثر من ذلك ، أود أن أقول اللهم
ارض عنى ..

فقال الشيخ كالمترنم :

— قالت المرأة السماوية : « أما تستحي أن تطلب رضا من
لست عنه براض ؟! » .

وضج الخلاء في الخارج بنهيق حمار ختم بحشرجه
كالبكاء ، وغنى صوت لا حلاوة فيه « البخت والقسمة فين » .
كما ضبطه أبوه وهو يغنى « حزر فزر » فلكمه برحمة وقال له
« أهذه أغنية مناسبة ونحن في الطريق الى الشيخ المبارك ؟ »
وترنح الأب وسط الذكر ، غابت عيناه ، بح صوته ، تصبب
عرقا . وجلس هو عند النخلة يشاهد صفى المريدين تحت ضوء
الفانوس ويقضم دومة وينعم بسعادة عجيبة . وكان ذلك سابقا
لنزول أول قطرة حارقة من شراب الحب . وأغضض الشيخ
عينيه فكأنه نام . وألف هو المنظر والجو حتى البخور لم يعبد
يشمه . وطرأت فكرة بأن العادة أساس الكسل والملل والموت .
وهي المسئولة عما عانى من خيانة وجحود وضياع جهد العبيد
سدى . وتساءل ليوقله :

— ألا تزال تحيا الأذكار هنا ؟

فلم يجبه . وساوره القلق فعاد يسأل :

— ألا ترحب بى ؟

ففتح الشيخ عينيه قائلاً :

— ضعف الطالب والمطلوب ..

— لكنك صاحب البيت !

فقال فى مرح طارىء :

— صاحب البيت يرحب بك ، وهو يرحب بكل مخلوق ،

وبكل شىء ..

فابتسم سعيد متشجعاً ، فاستدرك الشيخ قائلاً :

— أما أنا فصاحب لا شىء ..

وكان ضوء الشمس المرسوم على الحصيرة قد انسحب

الى الجدار فقال سعيد :

— على أى حال فهذا البيت بيتى ، كما كان بيت أبى ،

وبيت كل قاصد ، وأنت يا مولاي جدير بكل شكر ..

فقال الشيخ :

— اللهم انك تعلم عجزى عن مواضع شكرك فاشكر نفسك

عنى ، هكذا قال بعض الشاكرين !

فقال سعيد برجاء :

— انى فى حاجة الى كلمة طيبة ..

فقال فى عتاب حلیم :

— لا تكذب ..

وأحنى رأسه حتى انتشرت لحيته على صدره وراح
مستغرقا . انتظر سعيد صابرا ، ثم تزحزح الى الورااء ليسند
ظهره الى رف من رفوف الكتب ، وجعل يتأمل الشيخ الجميل .
ولما طال انتظاره سأله :

— هل من خدمة أؤديها لك ؟

فلم يعن بالالتفات الى قوله ، ومضى زمن صامت وعينه
سعيد تتابع طايبورا من النمل يزحف بخفة بين ثنيات الحصيرة ،
واذا بالشيخ يقول :

— خذ مصحفنا واقرا ..

فارتبك سعيد قليلا ثم قال بلهجة المعتذر :

— غادرت السجن اليوم ولم أتوضأ ..

— توضأ واقرا ..

فقال بلهجة جديدة شاكية :

— أنكرتني ابنتي ، وجفلت مني كأنى شيطان ، ومن قبلها

خاتنتى أمها !

فعاد الشيخ يقول برقة :

— توضأ واقرا ..

— خاتنتى مع حقير من أتباعى ، تلميذ كان يقف بين يدي .

كالكلب ، فطلبت الطلاق محتجة بسجنى ، ثم تزوجت منه .

— توضأ واقرا ..



فقال باصرار :

— ومالى ، النقود والخلى ، استتولى عليها ، وبها صار معلما قد الدنيا ، وجميع أنذال العطفة أصبحوا من رجاله ..
— توضأ وقرأ ..

بعبوس وقد انتفخت عروق جبينه :

— لم يقبض علىّ بتدبير البوليس ، كلا ، كنت كعادتى واثقا من النجاة ، الكلب وشى بى ، بالاتفاق معها وشى بى ، ثم تنابعت المصائب حتى أنكرتني ابنتى ..

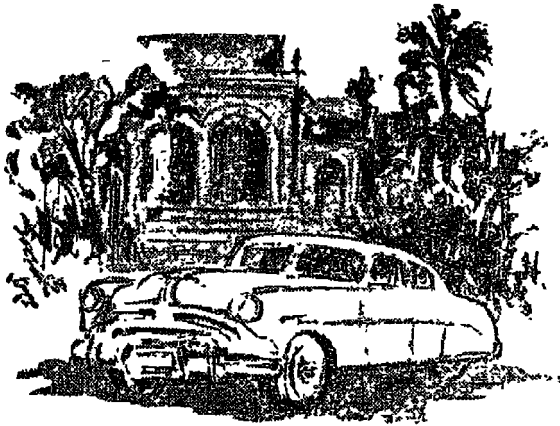
فقال الشيخ بعتاب :

— توضأ وقرأ « قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » ، وقرأ « واصطنعتك لنفسى » وردد قول القائل « المحبة هى الموافقة أى الطاعة له فيما أمر ، والاتهاء عما زجر ، والرضا بما حكم وقدّر » .

ها هو أبى يسمع ويهز رأسه طربا . ويرمقنى باسماء كأنما يقول لى اسمع وتعلم . وأنا سعيد وأود غفلة لأتسلق النخلة . أو أرمى طوبة لأسقط بلحة . وأترنم سرا مع المنشدين . ومع العودة ذات مساء الى بيت الطلبة بالجيزة رأيتها مقبلة تحمل سلة . جميلة وجذابة ، طاوية هيكلها على جسيح ما قدر لى من هناء الجنة وعذاب الجحيم . ماذا كان يعجبك من انشاد المنشدين ؟ . لما بدا لاح منار الهدى ، ورأيت الهلال ووجه

الحبيب . لكن الشمس لم تغرب بعد . آخر مخيط ذهبى يتراجع
من الكوة . أمامى ليلة طويلة . هى أولى ليالى الحرية . وحدى
مع الحرية . أو مع الشيخ الغائب فى السماء . المردد لكلمات
لا يمكن أن يعيها مقبل على النار . ولكن هل من مأوى آخر
آوى إليه ؟ ..

الفصل الثالث



قلب صفحات جريدة « الزهرة » حتى عشر على ركن الأستاذ رءوف علوان . وراح يقرأ بشغف وهو لم يزل على مبعدة أذرع من بيت الشيخ على الجنيدى حيث قضى ليلته . لكن من أى مداد يستمد رءوف علوان وحيه ؟ . ملاحظات عن موضة السيدات . مكبرات الصوت ، رد على شكوى زوجة

مجهولة ! . أفكار لذيذة حقاً ولكن أين رءوف علوان ؟ . بيت
الطلبة وتلك الأيام العجيبة الماضية . الحماس الباهر الممثل في
صورة طالب رينى رث الثياب كبير القلب . والقلم الصادق
المشع . ترى ماذا حدث للدنيا ؟ . وماذا وراء هذه الأعاجيب
والأسرار ؟ . وهل ثمة أحداث وقعت كأحداث عطفة الصيرفي ؟ .
حوادث نبوية وعليش والبنت الصغيرة المحبوبة التى أنكرت
أباها . على " أن أقابله . الشيخ أعطانى فراشا فوق الحصيرة
للنوم ولكنى فى حاجة الى تقود . على " أن أبدأ الحياة من
جديد يا أستاذ علوان . أنت لا تقل عظمة عن الشيخ على ، أنت
أهم ما لدى فى هذه الحياة التى لا أمان لها . وتوقف عن السير
أمام مبنى جريدة الزهرة بميدان المعارف . ضخم حقاً بحيث
لا يسهل السطو عليه ! . وهذا الطابور من السيارات المحدق
به كحراس الجدران الرهيبة . وأصوات المطابع وراء قضبان
البديروم كهينة الراقدين فى العنابر . ودخل ضمن تيار الداخلين
ثم وقف أمام مكتب الاستعلامات وسأل بصوت غليظ.
التبرات :

— الأستاذ رءوف علوان ؟

فرمقه الموظف فيما يشبه الامتعاظ لنظرة عينيه اللوزيتين
الجرئية لحد الوقاحة . وأجابه بجفاء :

— الدور الرابع ..

قصد من توه المصعد فوققف بين قوم بدأ فيهم غريب المنظر

ببدلته الزرقاء وحذائه المطاط ، وزاد من غرابته نظرته الحادة الجريئة وأنفه الأقنى الطويل . ولمح بين الواقفين فتاة فلحن في سره نبوية وعليش وتوعدهما بالويل . وما أن انتهى الى طرفة الدور الرابع حتى مرق الى حجرة السكرتير قبل أن يتمكن الساعى من اعتراضه . وجد نفسه فى حجرة كبيرة مستطيلة زجاجية الجدار المطل على الطريق ، وليس بها موضع لجالس وسمع السكرتير وهو يؤكد لمتحدث فى التليفون أن الأستاذ رءوف مجتمع برئيس التحرير وأنه لن يعود قبل ساعتين . شعر بأنه غريب حقاً ، لكنه وقف دون مبالاة ، يحصلق فى الوجوه بوقاحة كأنما يتحداهم . وقدما كان يرمى أمثالهم بعين تود ذبحهم ، فما حال هؤلاء اليوم ؟ . أما رءوف فلن يصفو له هنا . وما هذا المكان بالملتقى المناسب للأصدقاء القدامى . ورءوف اليوم رجل عظيم فيما يبدو . عظيم جدا كهذه الحجرة . ولم يكن فيما مضى الا محسرا بمجلة النذير ، مجلة منزوية بشارع محمد على . ولكنها كانت صوتا مدويا للحرية . ترى كيف أنت اليوم يا رءوف ؟ . هل تغير مثلك يا نبوية ؟ . هل ينكرنى مثلك يا سناء ؟ . ولكن بعداً لأفكار السوء . هو الصديق والأستاذ ، وسيف الحرية المسلول ، وسيظل كذلك - زغم العظمة المخيفة والمقالات الغريبة وسكرتارته الرفيعة . واذا كانت هذه القلعة لن تمكننى من عناقك فعن دفتر التليفون سأعرف مسكنك ..

افترش العشب الندى عند كورليش النيل بشارع النيل
ومضى ينتظر . اتظر طويلا على كئيب من شجرة حجبت ضوء
المصباح الكهربائي ، تحت سماء غاب عنها الهلال مبكرا تاركاً
النجوم تومض في ظلمة رهيبة . وجرت نسمة رقيقة لطيفة
مقطرة من أنفاس الليل عقب نهار أحمر طغى فيه الصيف
طغيانه . ولم تفارق عيناه الثيلا رقم ١٨ لحظة واحدة ، موليا
النيل ظهره شابكا راحتيه حول ركبتيه . يا لها من فيلا خالية
من ثلاث جهات ، والجهة الرابعة حديقة مترامية . وأشباح هذه
الأشجار تتناجى حول جسد الثيلا الأبيض ، منظر قديم طالما
شهد بالثراء وذكريات التاريخ . ولكن كيف ؟ ، ما الوسيلة ؟ ،
وفي هذه المدة القصيرة ؟ ، حتى اللصوص لا يحلمون بذلك .
اعتدت في الماضي ألا أنظر الى فيلا هكذا الا عند رسم خطة
للسطو عليها ، فكيف آمل اليوم مودة وراء فيلا ؟ ! . رءوف
علوان أنت لغز وعلى اللغز أن يتكلم ، أليس عجيبا أن يكون
علوان على وزن مهران ؟ ! ، وأن يمتلك عيش تعب عمرى كله
بلعبة الكلاب ؟ .

ووثب واقفا عند توقف سيارة أمام باب الثيلا . ولما رأى
البواب يفتح الباب على مصراعيه عبر الطريق بسرعة خاطفة ثم
تصدى للسيارة منحنيا قليلا ليراه صاحبها ، ولكن الرجل لم
يعرفه في الظلام فهتف بصوته الغليظ القوى :

— أستاذ رءوف .. أنا سعيد مهران !

اقترب رأس الرجل من النافذة المفتوحة وهو يقول بصوت
حلقى متزن :

— سعيد ! .. أووه ..

لم يستطع قراءة وجهه ، لكنه وجد في لهجته ما شجعه ،
ومضت هنيهة صمت وجود دون أن يفتح باب السيارة ، ثم
فتح الباب وجاءه الصوت قائلاً :

— اركب ..

بداية حسنة . رءوف علوان هو رءوف علوان بالرغم من
السكرتارية الزجاجية والقيلا العجيبة . وانحدرت السيارة في
ممشى كضلع القيثارة متجهة نحو مدخل السلامك .

— سعيد ، كيف حالك يا رجل ، ومتى خرجت ؟

— أمس ..

— أمس ؟

— نعم ، كان يجب أن أقصداك ولكنى شغلت بمسائل
عاجلة ، وكنت في حاجة الى الراحة فبت ليلتى عند الشيخ على
الجنيدي ، أتذكره ؟

فقال وهما يغادران السيارة الى بهو الاستقبال :

— أووه ! .. شيخ المرحوم والدك ، شهدت حلقاته معك ،

أكثر من مرة ..

— كانت مسلية !

— وكان يعجبني غناء المنشدين .

وأضاء خادم النجفة فخطفت بصر سعيد بمصاييحها الصاعدة ونجومها وأهلتها . وعلى ضوءها المنتشر تجلت مرايا الأركان عاكسة الأضواء ، وتبدت التحف الثاوية على الحوامل المذهبة كأنما بعثت من ظلمات التاريخ ، وتهاويل السقف وزخارف الأبسطة والمقاعد الوثيرة والنوسادة المستقرة عند ملقى الأقدام وأخيرا استقر البصر على وجه الأستاذ الممتلىء المستدير ، ذلك الوجه الذى طالما عشقه وحفظه عن ظهر قلب لطول ما أحدق فيه منصتا . وبيننا راح الخادم يفتح باباً مطلا على الحديقة فى الجدار الأيسر ويكشف عنه ستائره مضى هو ينظر الى الأستاذ ويلحظ الروائع مسترقا . وسرعان ما جرى تيار دسم مفعما بالعبير ، واختلطت الأضواء بالشذا فأوشك رأسه أن يدور . وجهه امتلأ كوجه بقرة . وشيء خفى سرى فى شخصه جعله ممتنعا رغم طلاقة الوجه وحسن السلوك وابتسامة الثغر . وثمة رائحة سحرية لا تصدر الا عن دم أزرق رغم أتفه المائل الى الفطس وفكيه البارزين . وقلبه يخفق فى اشفاق ويتساءل عن المقر ان انهدم الركن الوحيد الباقي . وجلس رءوف على كنبه قريبة من باب الثرائدا وأشار اليه أن يجلس على مقعد وثير يمثل جانبا من ضلع لمربع من المقاعد تطوق عامودا نورانيا شفافا موشى بصور أسطورية ، فجلس بلا تردد وبلا مبالاة كعادته . ومد الأستاذ ساقيه الطويلتين متسائلا :

— هل جئتني فى الجريدة ؟

— نعم ولكنى اقتنعت بأنها مكان غير مناسب للقاء !
فضحك عن أسنان اكتنف منابتها لون أسود ثم قال :
— الجريدة عبارة عن دوامة لا تهدأ ، وهل انتظرت هذا
طويلا ؟

— عمر كامل !

فضحك رءوف مرة أخرى وقال بلهجة ذات معنى :

— لا شك أنك عرفت هذا الطريق من قبل ؟ !

فضحك سعيد أيضا قائلاً :

— طبعا ، عرفت فيه زبائن لا ينسى فضلهم ، قتيلا فاضل
باشا حسنين وقد خرجت من زيارتها بألف جنيه ، وقرط ماسي
فادر من قتيلا الممثلة كواكب ...

وجاء الخادم يدفع أمامه نضدا قامت عليه زجاجة وكأسان ،
وجردل صغير أتيق بنفسجي اللون ملء ثلجا ، وطبق نضد
فوقه التفاح على هيئة هرم . وصحاف فواتح شهية ، وابريق
مياه فضى . وأوما الأستاذ للخادم فانسحب وراح يملا بنفسه
الكأسين ثم قدم احدهما الى سعيد ورفع الأخرى قائلاً :
— صحة الحرية ..

وأفرغ سعيد كأسه دفعة واحدة على حين تناول رءوف
رشفة ثم سأله :

— وكيف حال بنتك ؟ ، أووووه ، نسيت أسألك لم بت

ليبتك عند الشيخ على ؟

انه لم يدر شيئا ولكنه ما زال يذكر أنه أنجب بنتا . وفي
ايجاز بارد قاس سرد له تاريخ مأساته حتى قال :

— أمس زرت عطفة الصيرفي فوجدت مخبرا في انتظارى
كما توقعت ، وألكرتتى ابنتى وصرخت فى وجهى ..
وملا كاسا أخرى دون استئذان فقال رءوف :

— حكاية مؤسفة ، أما بنتك فمعدورة ، انها لا تتذكرك ،
وسوف تعرفك وتحبك ..

— لم تعد لى ثقة فى جنسها كله ..

— هكذا أنت الآن ، أما غداً فمن يدرى ؟ ، ستغير رأيك
بنفسك ، وهذا هو حال الدنيا ..

ورن جرس التليفون فقام رءوف اليه وتناول السماعة ثم
أصغى قليلا ، وسرعان ما ابتهج وجهه بابتسامة عريضة ، فرفعه
ومضى به الى الثرائدا . تابعه سعيد من أول الأمر بعينيه
الحادتين . امرأة ؟ ا . هذه الابتسامة وهذه الرحلة الى الظلام
لا تكوفان الا لامرأة . ترى أما زال أعزب ؟ . هاهما يجلسان
جنباً الى جنب ، يتبادلان الشراب والحديث ، ولكن ثمة شعورا
كالاتحساس الخفى المنذر باكتشاف دمل يوسوس له بأن معاودة
هذا اللقاء شيء عسير حقا . لا يدرى لماذا يطبق عليه . وهو
يصدقه كأنسان يعتمد كثيرا على غرائزه الملهمة . انه اليوم من
أهل الطريق الذى لم يعتد زيارته الا معتديا . ولعله تورط فى
الترحيب به مضطرا . ولعله تغير حقا فلم يبق من الشخص

القديم الا ظل صورته . وجلجلت ضحكة في الثرانداز فارداد
تشاؤما . وتناول تفاحة بهدوء ومضى يقضمها . ما حياته الا
امتداد لأفكار هذا الرجل الضاحك في التليفون فاذا كان قد
خانها فالويل له . وأخيرا عاد رءوف علوان من الثرانداز فوضع
التليفون على حامله ثم جلس وهو يبدو راضيا تماما :

— مباركة عليك الحربة ، هي كنز ثمين يعزى عن فقد أى
شئ مهما غلا ..

فتناول قطعة من البسطرمة وهو يهز رأسه بالايجاب ولكن
دون اهتمام جدى :

— وها أنت تخرج من السجن لتجد دنيا جديدة ..

وملا كأسين ومضى سعيد يلتمهم ألوان الطعام بشراة .
وحالت منه نظرة الى صاحبه فابتسم هذا بسرعة ليغضى على
نظرة امتعاض ! . أنت مجنون ان تصورت أنه يرحب بك من
قلبه . ما هي الا مجاملة بنت حياء . ولن يلبث أن يتبخر هذا
الحياء . كل خيانة تهون الا هذه . يا للفراغ الذى سيلتهم
الدنيا . ومد رءوف يده الى علبة سجائر محلاة بنقوش صينية
في تجويف بالعامود المضى فتناول سيجارة وهو يقول :

— يا عم سعيد ، زال تماما جميع ما كان ينقص علينا صنو
الحياة ..

فقال سعيد من فم مكثظ :

— طالماً هزتنا الأنباء في السجن ، من كان يحلم بشيء كهذا ؟ !

ثم وهو يحدجه بنظرة باسمة :

— لا حرب الآن !

— لتكن هدنة ! ، ولكل جهاد ميدان ..

وألقى سعيد نظرة فيما حوله قائلاً :

— وهذا البهو الرائع كالميدان ..

وأسف على افلات هذه الملاحظة . ولمح في عيني صاحبه نظرة باردة . ألا يعرف لسانك ما الأدب ! . وتساءل رءوف بهدوء غاضب :

— أى وجه شبه بين هذا البهو والميدان ؟

فزاع قائلاً :

— أقصد أنه مثال للذوق الرفيع ..

فضيق رءوف عينيه امتعاضاً وقال بسخط واضح :

— المراوغة عبث ، أفصح عما بنفسك ، أنا أفهمك وأنت

خير من يعرف ذلك !

فضحك سعيد متودداً وهو يقول :

— لم أقصد سوءاً على الإطلاق ..

— يجب أن تذكر دائماً أنى أعيش بمرقى وكدى ..

— هذا ما لا أشك فيه مطلقاً ، بالله لا تغضب هكذا ..

فراح يدخن السيجارة بسرعة عصبية دون أن ينطق حتى
اضطر سعيد الى التوقف عن الأكل وقال بلهجة المعتذر :

— لم أتخلص بعد من جو السجن فيلزمى وقت طويل
حتى أسترجع آداب الحديث والسلوك ، ولا تنس أن رأسى
ما زال دائرا من أثر المقابلة الغربية التى أنكرتنى فيها ابنتى ..
والظاهر أن رعوف أعرب عن عفوه برفع حاجبيه الصاعدة
شعيراتها الى أعلى ، ولما رأى عينى الرجل تنتقلان بين وجهه
وبين الطعام كأنما يستأذنه فى معاودة الأكل قال بهدوئه السابق :
— كل ..

فهجم سعيد على بقايا الصحف بلا تردد ولا تأثر بما كان
حتى مسحها . وعند ذلك قال رعوف ولعله رغب فى انها ،
المقابلة :

— يجب أن يتغير الحال تماما ، هل فكرت فى المستقبل ؟
فقال سعيد وهو يشعل سيجارة :

— لم يسمح الماضى بعد بالتفكير فى المستقبل ..

— يخيل الى أن النساء أكثر عددا من الرجال فلا تكثرث
لحيافة امرأة ، أما ابنتك فستعرفك يوما وتحبك ، المهم الآن أن
تبحث لك عن عمل ..

فقال وهو ينظر الى تمثال اله صينى بدا آية فى الوقار .
والنعاس :

— تعلمت فى السجن الحياطة !

فتساءل الأستاذ في دهشة :

— أترغب في أن تفتح دكان خياط ؟

فقال بهدوء :

— بكل تأكيد كلا ! ..

— ماذا اذن ؟

فقال وهو يحدثه بنظرة وبقعة :

— لم أتقن في حياتي الا حرفة واحدة ..

فتساءل كالمنزعج :

— أترجع الى اللصوصية ؟

— هي مجزية جدا كما تعلم ..

فصرخ بحدة :

— كما تعلم ! من أين لى أن أعلم ؟ !

فرمقه بهدشة قائلاً :

— لم تغضب هكذا ؟ ، قصدت أن أقول كما تعلم عن

ماضى ، أليس كذلك ؟

وخفض رءوف عينيه كأنما يقنع نفسه بقوله ولكن وضع

أنه لم يعد في الامكان أن يعود وجهه الى صفائه الطبيعي .

وقال بلهجة من يرغب في الاجهاز على الحديث :

— سعيد ، ليس اليوم كالأمس ، كنت لصا وكنت صديقاً

لى في ذات الوقت لأسباب أفت تعرفها ، ولكن اليوم غير

الأمس ، اذا عدت الى اللصوصية فلن تكون الا لصا فحسب !

فاتتشر واقفا في عصبية وهو يواجه اليأس في صراحته
القاسية ، ولكنه خنق انفعاله بارادة من حديد فعاد الى الجلوس
وهو يقول بهدوء :

— اختر لى عملا مناسباً !

— أى عمل ، تكلم أنت وأنا مصنع اليك ..

فقال بسخرية خفية في الأعماق :

— يسعدنى أن أعمل صحفياً في جريدتك ا ، أنا مثقف ،
وتلميذ قديم لك ، قرأت تلالاً من الكتب بارشادك ، وطالما
شهدت لى بالنجابة ..

فهز رءوف رأسه في ضجر حتى لعب الضوء فوق شعره
الأسود الغزير وقال :

— لا وقت للمزاح ، أنت لم تمارس الكتابة قط ، وأنت
خرجت أمس فقط من السجن ، وأنت تعبت وتضيع وقتى
بلا طائل ..

فقال بامتعاض :

— اذن على أن أختار عملاً حقيراً ؟

— لا عمل حقير على الإطلاق ما دام شريفاً ..

غلبته المرارة بعد اليأس فلم يعد يبالي شيئاً ، وبسرعة جرى
ببصره في أنحاء البهو الأنيق ، ثم قال فيما يشبه التحدى :

— ما أجمل أن ينصحنا الأغنياء بالفقر .. ا

فكان جوابه أن نظر في ساعته فقال سعيد برقة :

— أنا واثق من أننى أخذت من وقتك أكثر مما يجوز ..

فقال رءوف بصراحة شمس يوليو :

— نعم فأنا مرهق بالعمل !

فوقف وهو يقول :

— أشكر لك الضيافة والعشاء ونبل الأخلاق ..

وأخرج رءوف حافظة قهوده فأعطاه منها ورقتين من ذات

الخمسة الجنيهات قائلاً :

— حتى تفرج ، ولا تؤاخذنى اذا قلت لك اننى مرهق

بالعمل ، وانه من النادر أن تجدنى خاليا كما وجدتنى الليلة ..

فتناول الجنيهات باسسا وصافحه بحرارة ، ثم قال بنبرة

رجاء :

— ربنا يتم نعمته عليك ..

الفصل الرابع

هذا هو رءوف علوان ، الحقيقة العارية ، جثة عفنة لا يوارىها تراب . أما الآخر فقد مضى كأمس أو كأول يوم في التاريخ أو كحب نبوية أو كولاء عlish . أنت لا تنخدع بالمظاهر فالكلام الطيب مكر والابتسامة شفة تنقلص والجود حركة دفاع من أنامل اليد ولولا الحياء ما أذن لك بتجاوز العتبة . تخلقنى ثم ترد ، تغير بكل بساطة فكرك بعد أن تجسد فى شخصى ، كى أجد نفسى ضائعا بلا أصل وبلا قيمة وبلا أمل ، خيانة لثيمة لو اندك المقطم عليها دكا ما شفيت نفسى . ترى أتقر بخيانتك ولو بينك وبين نفسك أم خدعتها كما تحاول خداع الآخرين ؟ ، ألا يستيقظ ضميرك ولو فى الظلام ؟ ، أود أن أفض الى ذاتك كما نفذت الى بيت التحف والمرايا بيتك ، ولكنى لن أجد الا الخيانة . سأجد نبوية فى ثياب رءوف أو رءوف فى ثياب نبوية أو عlish سدره مكانهما وستعترف لى الخيانة بأنها أسمح رذيلة فوق الأرض . من وراء الظهر تبادلن الأعين فطرات مربية قلقة مضطربة كنيار الشهوة التى يحملها . كالقطة الزاحفة على بطنها فى هيئة الموت نحو عصفورة سادرة .

وغلبت الاتهازية عمالة الحياء والتردد فقال عليش سدرة في ركن عطفة أو ربما في بيتي « سادل البوليس عليه لتتخلص منه » ، فسكتت أم البنت ، سكت اللسان الذي طالما قال لى بكل سخاء أحبك يا سيد الرجال . هكذا وجدت نفسى محصورا فى عطفة الصيرفى ولم يكن الجن نفسه يستطيع أن يحاصرنى ، وانهايت على اللكمات والصفعات . كذلك أنت يا رءوف ، لا أدرى أيكما أخون من الآخر ، ولكن ذنبك أقطع يا صاحب العقل والتاريخ ، تدفع بى الى السجن وتثب أنت الى قصر الأنوار والمرايا ، أنسيت أقوالك الماثورة عن القصور والأكواخ ؟ ، أما أنا فلا أسى !

وبلغ جسر عباس فجلس على أريكة حجرية واتبه الى الطريق لأول مرة . وقال بصوت مسموع كأنما يخاطب الظلام « خير البر عاجله ، الساعة وقبل أن يفيق من دهشته ! » . لاسبيل الى التردد فمهنتك هى مهنتك ، صالحة وعادلة ، وبخاصة عندما تطبق على فيلسوفها . وعندما أفرغ من تأديب الأوغاد فسأجد فى الأرض متسعا للاختفاء . هل يمكن أن أمضى فى الحياة بلا ماض فأتناسى نبوية وعليش ورءوف ؟ ، لو استطعت لكنت أخف وزنا وأضمن للراحة وأبعد عن حبل المشنقة ولكن هيهات أن يطيب العيش الا بتصفية الحساب . لن أنسى الماضى لسبب بسيط هو أنه حاضر — لا ماض — فى نفسى . وستكون مغامرة الليلة خير ابتداء أفتتح به العمل ، وستكون مغامرة دسمة .

وجرى النيل كأمواج من الظلام تنغرس في جنباتها أسهم الضياء
المنعكسة من مصابيح الشاطيء . وساد صمت شامل مريح ،
ثم دنت النجوم من الأرض عندما اقترب الفجر . وقام عن
مجلسه فتمطى ثم سار على مقربة من الشاطيء نحو المكان
الذى جاء منه . جعل يتقدم على مهل متحاشيا الأنوار الضئيلة
الباقية حتى هذه الساعة من الفجر ، وتباطأ أكثر عندما لاح
لعينه القصر الخالى من نواحيه الثلاث . وراقب الطريق بحدة
أرضه وأسوار القصور والشاطيء ثم استقرت عيناه على
القصر . بدا القصر مسدل الجفون تحرسه الأشجار من كل
جانب كالأشباح . نامت الحيانة فى هدوء بديع لا تستحقه البتة .
مغامرة دسمة ستعطى ردا حاسما على خداع العمر كله . وعبر
الطريق فى خطوات طبيعية دون تلفت أو حذر ، ثم سار بحذاء
الصور فى الشوارع الجانبى وهو يتفحص ما أمامه بعناية
شديدة ، فلما اطمأن الى خلو المكان مال فجأة لصق الصور
منغرضا فى الياسمين والبنفسج وتوقف عن أية حركة . ان يكن
فى القصر كلب - غير صاحبه - فسيملأ الدنيا نباحا ، ولكن
لم تند عن الصمت همسة واحدة . يا رءوف .. تلميذك قادم
ليحمل عنك بعض متاع الدنيا . وتسلق الصور بخفة وبأطراف
مخنكة كأنها أطراف قرد ولم تعقه الأغصان الكثيفة المنتفة
الغارقة فى الأوراق والأزهار ، ثم اعتمد على قبضتيه ورفع
جسمه بقوته الذاتية الى ما فوق الأسنان المدببة وهبط به حتى

اشتبكت ساقاه بالأغصان في الداخل فلبد فيها ريثما يسترد
أنفاسه ، ويراقب الحديقة المكتظة بالشجيرات والأشجار
والظلمة . عليك أن تصعد الى السطح ومنه تهبط الى الداخل
حتى تعرف طريقك ، لا آلة معك ولا بطارية ولا فكرة سابقة
عن المكان . لم تسبقك نبوية اليه لتعمل غسالة أو خادمة بعض
الوقت فهي اليوم مشغولة بعليش سدره . وقطب بعنف ليترد
عنه هذه الأفكار ، ونزل بحذر الى الأرض ، ثم زحف على أربع
متجها نحو جدار الثيللا . ودار مع البناء متحسسا الحيطان حتى
عثر على ماسورة . وأخذ يتسلق بمهارة البهلوان . وكان السطح
مقصده غير أنه مر بنافاذة مفتوحة غير بعيدة منه ، وفي الحال
قرر تجربتها . سدد ساقه نحو النافذة حتى انطرحت على
حافتها ، وشد أعصاب يديه متنقلا بهما فوق كوريش الحائط
حتى استقر جميعه فوق حافة النافذة . وانزلق الى الداخل
فوجد نفسه في مكان حدس أنه مطبخ . وضايقته كثافة الظلمة
فوجد باحثا عن الباب ، وكان يتوقع ظلمة أكثف في الداخل ،
ولكنه حلم بحافظة تقود رءوف أو بعض التحف ، وكان عليه
أن يتقدم . تسلل من الباب متملسا الجدار بيديه ، وقطع مسافة
غير قصيرة وكثافة الظلام تكاد تصده ، ثم أحس تيارا خفيفا
من الهواء يلفح وجهه . من أين يجيء الهواء ؟ . وانعطف مع
انعطاف الجدار الأملس وتقدم ماذا ذراعه محركا أصابعه حتى
لمست أسلاكاً بلورية مسدلة محدثة وسوسة خفيفة اتقبض لها

قلبه . ستارة لا شك في ذلك ، اقترب الآن من هدفه ، واتجه فكره نحو علبة الثقب في جيبه دون أن يمد لها يدا ، وفتح بخفة ثغرة دلف منها الى الداخل ، وضيق ما بين ذراعيه ليعيد الستارة الى وضعها الطبيعي دون صوت . وتقدم خطوة فارتطم بمقعد أو بقائم ما لا يدرية ، وتفادى منه وهو يرفع رأسه ملتصقا نورا خافتا ساهرا — وقد تعلق أمله بالوصول اليه — ولكنه رأى ظلما مطبقا كالكابوس . وفكر في اشعال عود ثقب للحظة واحدة . وبغثة دهمه نور ساطع من كل ناحية . نور شديد انقض عليه كلكمة قاضية . انلق جفناه بلا ارادة ولما فتحهما رأى رءوف علوان على بعد ذراعين . على بعد ذراعين في روب طويل بدا فيه عملاقا ، ويده مدسوسة في جيبه مشدودة كأنها تقبض على سلاح ، هكذا ظن . ونظرة عينيه الباردة زادت قلبه المهزوم برودة ، وانطباق شفثيه الناطق بالعداوة والكرهية . والصمت القاتل أثقل من سور السجن ، والسجان عبد ربه سيقول هازئا ما أسرع أن رجعت . وانطلق صوت نحاسي من وراء ظهره يتساءل :

— فنادى البوليس ؟

فالتفت وراءه فرأى ثلاثة من الخدم يقفون صفا غير أن رءوف خرج عن صمته قائلا .

— اذهبوا خارجا وانتظروا ..

ولما فتح الباب ثم أغلق وراءهم أدرك خطفا أنه باب خشبي

ذو زخارف عربية محلى الرأس بحكمة أو مثل أو آية من
الصدق . وأرجع رأسه من التفاتته ليتلقى النظرات العابسة
ويسمع صوته الحشن وهو يقول :

— من الغباء أن تجرب ألعيبك معى أنا ، أنا فاهمك
وحافظك عن ظهر قلب ..

لم ينبس ومضى يفتق من ضربة المفاجأة ولكن على استسلام
كاليأس وان داخله شعور بأنه لن يسلم الى القبضة التى أفلت
منها أمس أو هكذا شعر ..

— كنت فى انتظارك ، على أتم استعداد ، بل ورسمت لك
طريق السير ، وددت لو يخطىء ظنى ، ولكن أى سوء ظن
فيك يخطىء ؟ !

غض بصره لحظات فرأى ما تحت قدميه من مشمع لامع
ثم رفعهما دون أن يحاول الخروج عن صمته .

— لا فائدة ، لن تنتهى من خقارتك ، وستموت حقيرا ،
وخير ما أفعله الآن أن أسلمك الى البوليس ..

فاختلج جفناه وانفجرت شفتاه فى عصبية ، فتساءل رءوف
بحدة :

— ماذا جئت تريد ؟

فغض بصره مرة أخرى .

— أنت تقصح عن عداوتك ، نسيت الاحسان وتركزت



في الحقد والحسد ، انى أعرف أفكارك بقدر ما أعرف
حركتك ..

وبصوت خافت وبعينين تختفيان في الأرض قال :
— رأسى دائر ، وما زال دائرا منذ خرجت من السجن ..
— كذاب ، لا تحاول خداعى ، أنت تتوهم أنى صرت
واحدا من الأغنياء الذين كنت أحمل عليهم ، وعلى هذا الأساس
أردت أن تعاملنى ..

— ليس الأمر كذلك ..

— اذن لم تسلمت الى بيتى ؟ ، لم تريد أن تسرقنى ؟

تردد سعيد مليا ثم قال :

— لا أدرى ، لست فى حالة طبيعية ، وأنت لن تصدقنى !
— طبعا ، لأنك تعلم أنك كاذب ، لم تقتنع بكلماتى
الطيبة ، ثار حسدك وغرورك ، اندفعت كالجنون نفسه كما هى
عادتك ، ولك ما تشاء فستجد نفسك فى السجن مرة أخرى ..

فقال فى تسليمه:

— اعذرنى ، ما زلت أعيش بعقلية السجن وما قبله ..

— لا عذر لك ، أنا أقرأ أفكارك ، قرأت كل جملة مرت

بعقلك ، كل جملة ، الصورة الكاملة التى تتصورنى فيها ،

والآن آن لى أن أسلمك للبوليس ..

فمد يده كالرجاء قائلا :

— كلا ..

— كلا؟! ، ألا تستحقه؟

— بلى ، ولكن كلا ..

فنفخ غاضبا وهو يقول :

— ان رأيتك مرة أخرى فسأسحقك كحشرة ..

وهم بالتحرك في سبيل النجاة ولكنه صاح به :

— ارجع النقود !

فجمد بصره دقيقة ، ثم دس يده في جيبه فأخرج الورقتين

فتناولهما الآخر قائلا :

— لا ترني وجهك مرة أخرى ..

عاد الى شاطئ النيل وهو لا يصدق أنه نجا ولكن راحة النجاة تكدرت بالهزيمة . وعجب تحت أنفاس الفجر الرطبية كيف أنه لم ينتبه الى هوية الحجر التي ضبط فيها وانه لم يكاد يرى منها الا بابها المزخرف وأرضها الشمعية . واستسلم لرحمة الفجر الندية متعزيا الى حين عن كل شيء حتى عن ضياع الورقتين ، ثم رفع رأسه الى السماء فهال السلطان النجوم المتألق في هذه الساعة من الفجر ..

الفصل الخامس



حملك الرجال القليلون بأعين لا تصدق ، وقاموا قومة رجل
واحد :

— يا أرض احفظي ما عليك !

— ليلة بيضا بالصلاة على النبي .

وَأَحَدَقُوا بِهِ وَعَلَى رَأْسِهِمْ مَعْلَمُ الْقَهْوَةِ وَصِيِّهِ وَعَانَقُوهُ

وقبلوا وجنتيه . وشد سعيد مهران على أيديهم واحدا فواحدا
وهو يقول بامتنان :

— أشكرك يا معلم طرزان ، أشكركم يا اخوان ..

— متى ؟

— أول أمس .

— تفاءلنا خيرا بأخبار العيد .

— الحمد لله .

— وبقية الجدعان ؟

— بخير ، وكل شيء بأوان !

ولبثوا يتبادلون الأخبار حتى أخذهم المعلم الى أريكته
ورجاهم أن يعودوا الى مجالسهم فعادت القهوة الى هدوئها .
لم يتغير شيء كأنه تركها بالأمس . الحجرة المستديرة ، النصبه
النحاسية ، الكراسي الخشبية ذات المقاعد من القش المفتول ،
الزبائن القلائل المعروفون الموزعون في الأركان ، يحتسون
الشاي ويعقدون الصفقات . ومن خلال النافذة الكبيرة والباب
لاح الخلاء شاملا متراميا الى غير نهاية ، والظلام كثيفا لا تخففه
بارقة ، والصمت مهيبا عدا ضحكات منقطعة يرمى بها الهواء
من الخارج ، وجرى تيار جاف منعش ما بين الباب والنافذة
يحمل طابع الصحراء من القوة والنقاء . تناول سعيد قدح
الشاي من الصبي ثم رفعه الى فيه قبل أن يبرد . ومال نحو
المعلم متسائلا :

— كيف حال الشغل ؟
 فلوى طرزان شفته السفلى فى امتعاض وقال :
 — ندر من يعتمد عليه من الرجال !
 — لم كفى الله الشر ؟
 — تنابلة كأنهم موظفو الحكومة !
 فندت عنه تفخة ساخرة وقال :
 — التنبل على أى حال خير من الخائن ، بسبب خائن دخلت
 السجن يا معلم طرزان .
 — يا لطف الله !
 فحدجه بنظرة نافذة متسائلا :
 — ألم تسمع بالخبر ؟
 فهز المعلم رأسه فى أسف ولاذ بصمت مبين ، فهمس سعيد
 فى أذنه :
 — يلزمنى مسدس جيد !
 فقال طرزان بلا تردد :
 — تحت أمرك ..
 فربت على منكبه شاكرا ثم قال بشيء من الارتباك :
 — لكن ليس ..
 فوضع أصبعه الغليظ على شفثيه قاطعا كلامه فى عتاب
 وهو يقول :
 — لا عاش من أحوجك الى اعتذار !

وأتى على ما فى القدر فى ارتياح ، ثم قام ماضيا الى
النافذة . وقف وراءها ناصبا قامته النحيلة المفتولة المتوسطة
الطول فبسط الهواء جناحى چاكتته كالشراع ، ومد البصر
الى الخلاء المنتشر على الأرض المفعم بالظلام ، فتبدت النجوم
فى السماء الصافية كالرمال . وكان القهوة جزيرة فى محيط أو
طيارة فى سماء . وفى أسفل الهضبة التى تقوم عليها القهوة
تحركت السجائر — كالنجوم — فى أيدي الجالسين فى الظلمة
من رواد الهواء الطلق ، وعند الأفق الغربى لاحت أنوار
العباسية بعيدة جدا يشعر بعدها بمدى توغل القهوة فى
الصحراء . وأطل من النافذة فصعدت اليه أصوات الجالسين
حول الهضبة ، النازحين الى الصحراء طلبا للهواء والراحة .
وانحدر اليهم صبى القهوة حاملا فارجية تتوهج جمراتها
ويتطاير منها الشرر مطلقا . واحتدم السمر تتخلله الضحكات ،
وقال صوت يافع ملتذا بالحديث فيما بدا :

— دلونى على مكان واحد فى الأرض ينعم بالطمأنينة ؟

فأجابه آخر متحديا :

— هذا المجلس ، ألا ينعم مجلسنا الآن بالطمأنينة ؟

— تقول « الآن » وهذه هى المأساة .. !

— لم نلعن القلق والمخاوف ، ألا تعفينا فى النهاية مر،
التفكير فى المستقبل ؟

— اذن فأنت عدو للسلام والاستقرار !

— اذا كان جبل المشنقة حول عنقك فالطبيعى أن تخشى
الاستقرار .

— هذه مسألة خاصة يمكن معالجتها فيما بينك وبين
عشماوى ..

— أتم تثرثرون فى هناء لأنكم فى حمى الظلام والصحراء
ولكنكم لن تلبثوا أن تعودوا الى المدينة فما الفائدة ؟
— المأساة الحقيقية هى أن عدونا هو صديقنا فى الوقت
نفسه ..

— أبدا المأساة الحقيقية هى أن صديقنا هو عدونا ..

— بل انا جبناء ، لم لا نعترف بهذا ؟

— ربما ولكن كيف تتأنى لنا الشجاعة فى هذا العصر ؟
— الشجاعة هى الشجاعة .

— والموت هو الموت ..

— والظلام والصحراء هى هذا كله !

يا له من سمر . ماذا يقصدون ؟ . لكنك شعرت بأنهم
يعبرون عن خالك على نحو ما . نعم على نحو غامض كأسرار
هذا الليل . أنت أيضا كانت لك يفاعه متوثبة . والقلب سكران
برحيق الحماس . والسلاح تحصل عليه للجهاد ولا للاغتتيال .
وراء هذه الهضبة التى تقوم عليها القهوة كان فنية يتدربون
على القتال بشباب رثة وضماير فنية . وساكن القصر رقم ١٩
كان على رأسهم . على رأسهم يتمرن ويمرن ويلقى بالحكم .

المسدس أهم من الرغيف يا سعيد مهرا ، المسدس أهم من حلقة الذكر التي تجرى إليها وراء أريك ، وذات مساء سألك « سعيد ، ماذا يحتاج الفتى في هذا الوطن ؟ » ثم أجاب مير منتظر جوابك « الى المسدس والكتاب ، المسدس يتكفل بالماضى والكتاب للمستقبل ، تدرب واقرأ . ووجهه وهو يقهقه في بيت الطلبة قائلاً : « سرقت ؟ ... هل امتدت يدك الى السرقة حقاً ؟ ، براثو ! ، كى يتخفف المعتصبون من بعض ذنبهم ، انه عمل مشروع يا سعيد ، لا تشك في ذلك » وشهد هذا الخلاء مهارتك . قالوا انك الموت نفسه وان طلقتك لا تخيب . وأغمض عينيه مستسلماً للهواء النقى واذا بيد توضع على كتفه فالتفت وراءه فرأى المعلم طرزان ماداً يده الأخرى بالمسدس وهو يقول :

— نار على عدوك باذن الله ..

فتناوله ومضى يتفحصه ويختبره ، ثم سأله :

— بكم يا معلم ؟

— هدية !

— كلا ، كل ما أرجوه أن تمهلنى الى ميسرة ..

— كم طلقة تحتاج ؟

وعادا معا متجهين نحو أريكة المعلم . وعندما مرا بباب =

القهوة لعلت في الخارج ضحكة أثنوية فضحك المعلم طرزان وقال :

— نور ، ألا تذكرها ؟

نظر سعيد الى الظلام خارج الباب فلم ير شيئا وتساءل :
— أما زالت تجيء الى هنا ؟

— من حين لآخر ، ستفرح لرؤيتك ..

— صايدة ؟

— طبعا ، ولد ابن صاحب مصنع حلوى ..

ولما جلسا على الأريكة نادى المعلم صبيه وقال له :

— بصنعة لطافة قل لنور أن تأتي ..

لتأت ليرى ماذا فعل الزمان بها . التي عبثا أرادت امتلاك قلبه . قلبك الذي كان ملكا خالصا للخائنة . وليس أقسى على القلب من أن يروم قلبا أصم . عندما تخاطب البلابل حجرا أو تداعب النسمة أسنانا مدبية . حتى هداياها اليه كان يهديها الى نبوية عليش . وربت المسدس وهو مستكن في جيبه وعض على أسنانه . وظهرت نور عند الباب غير متوقعة للمفاجأة التي تنتظرها . فلما رآته توقفت على بعد خطوات في ذهول . ونظر اليها باسماء وفي امعان . بدت أنحل مما كانت واختفى وجهها تماما تحت المساحيق الدسمة . ونطق بالاغراء فستان أبيض انطلقت منه الأذرع والسيقان بلا حرج وقد شد حول جسدها كالمطاط حتى صرخ التهمتك ، وعربد شعر رأسها القصير في تيار الهواء . وسرعان ما هرعت اليه حتى تلاقت الأيدي وهي تقول :

— حمداً لله على سلامتک ..
وضحکت ضحکة عصبية تدارى بها تأثرها ، ثم اندست
بينه وبين المعلم طرزان .
— كيف حالک يا نور ؟
فأجاب طرزان باسماء :
— هي كما ترى نور ونور !
وقالت المرأة :
— بخير ، وأنت ؟ ، صحتک عال ، لكن عينیک ؟ ، أنا أعرفک
وأنت غضبان !
فتساءل باسماء :
— كيف ؟
— لا أدري كيف أقول ، نظرة محمرة ! ، وانذار يتحرك
في شفتيك ..
ضحك ، ثم قال بأسف :
— سيأتي صاحبک ليأخذک ...
فقالت وهي تهز رأسها لتزيح خصلة شعر عن عينيها :
— انه لا يعرف رأسه من رجليه !
— على أى حال فأنت مقيدة به ..
فرمته بنظرة ماكرة وهي تتساءل :
— أتجب أن أدفنه في الرمال ؟
— ليس الليلة ، سنلتقى فيما بعد ..

ثم بشيء من الاهتمام :

— قيل انه لقطه ؟

— نعم، وسنذهب بسيارته الى مدفن الشهيد فهو يحب الخلاء !
وتجلت في عينيه نظرة اهتمام لم تخف عليها ، وتساءل
وكأنما يحدث نفسه :

— يحب الخلاء عند مدفن الشهيد ؟

اضطرب جفناها ، وازداد اضطرابها عندما التقت عيناهما ،
ثم تساءلت في عتاب :

— أرايت أنك لا تفكر في ؟

وهو لا يكاد يلقي بالا الى عتابها :

— لم ؟ ، أنت عزيزة جدا !

— بل أنت تفكر في اللقطه !

فابتسم قائلاً :

— انه ضمن تفكيرى فيك !

فقلت بقلق :

— ان انكشف أمرى ضعت ، أبوه قوى وأهله كالنمل ،

هل أنت فى حاجة الى تقود ؟

— فى حاجة الى السيارة أشد !

وقام وهو يقرص خدها برقة ويقول :

— كوني طبيعية جدا ، لن يحدث شيء مما تخافين ، ولن
تنجيه اليك الظنون ، لست طفلا ، وسوف نلتقى بعد ذلك أكثر
مما تصورين .

الفصل السادس

تجنب الطريق الملاصق للشكنات ، واخترق الصحراء نحو مدفن الشهيد ليبلغه في أقصر وقت . وكان كأنما يهتدى ببوصلة مركبة في رأسه لسابق درايته بصحراء العباسية . وعندما لاح له قبة المدفن الضخمة تحت ضوء النجوم راحت عيناه تفتشان عن المكان الذي تنزوي فيه السيارة . ودار حول المدفن وهو يحدء بصره ولا يعثر على ضالته حتى بلغ ضلعه الجنوبي فترأى له شبح هيكلها راقدًا على بعد . مضى نحوها مصمما ، ثم ما لبث أن أحنى ظهره حتى انخفض رأسه الى مستوى ركبتيه واقترب منها فوضح لأذنيه أن الصمت يتخلخل بهمسات مغرقة في السر . سيدعر قلب هائىء وتتبدد مسرة ولكن لا ذنب لك . الاختلال يطبق علينا مثل قبة السماء . وقدما قال رءوف علوان ان نوايانا طيبة ولكن ينقصنا النظام . واشتد اقترابه فيما يشبه الزحف حتى قبضت راحته على مقبض الباب وتفحنته حرارة النفثات . شد على المقبض وجذب الباب بقوة هاتفا :

— لا تتحرك !

وانطلقت من عنف المفاجأة آهتان ، ولاح له الرأسان وهما يتطلعان اليه في فزع . لوح بالمسدس قائلا بوحشية :



— سأطلق النار لأدنى حركة ، اخرجنا ..

وجاءه صوت نور متوسلا :

— فى عرضك ..

وتساءل الآخر بصوت مختنق مبجوح كأنه ينطلق خلال

رمل وحصى :

— ماذا ... ماذا تريد من فضلك ؟

— اخرجنا ..

ألقت نور بجسها الى الخارج قابضة على ثيابها فى كومة

واحدة ، وتبعها الشاب وهو يدس نفسه فى بنطلونه متعثرا .

ولم يمهله فقرّب منه المسدس حتى هتف بصوت باك :

— لا .. لا .. لا تطلق .

فقال بصوت غليظ آمر :

— النقود !

— الجاكتة فى الداخل ..

فدفع نور الى الداخل قائلا :

— ادخلى أنت ..

فدخلت متأوهة من عنف الدفعة وهى تردد :

— فى عرضك اتركنى !

— هاتى الجاكتة ..

وتناولها منها ، وبسرعة أخذ المحفظة ورمها بها أمرا :

— عندك دقيقة لتنجو بحياتك !

انطلق الشاب في الظلام كالشهاب . وارتمى هو داخل
السيارة بسرعة فائقة ، وسرعان ما أدار المحرك فاندفعت مدوية .
وأكملت ارتداء ثيابها وهي تقول :

— فزعت حقيقة كأنى لم أكن أتوقعك !
فقال والسيارة تنطلق بسرعة مخيفة :

— بلى ريقك ..

فأعطته زجاجة تناول منها جرعة ثم ردها اليها ففعلت مثله
ثم قالت :

— ركب سابت ، مسكين !

— قلبك أبيض ، أما أنا فلا أحي أصحاب المصانع ..

فاعتدلت في جلستها وهي تقول بلهجة ذات معنى :

— الحقيقة أنك لا تحب أحدا !

ولم يجد رغبة في المغالبة فلم يرد ، وبدا أن السيارة تتجه
بحو العباسية فتوسلت اليه قائلة :

— سيرونى معك !

وكان يفكر في ذلك أيضا فمال مع الطريق المتفرع الذي
يفضى في النهاية الى الدراسة . وخفف من السرعة قليلا ، ثم
راح يقول :

— قصدت قهوة طرزان لأحصل على مسدس ولأنتقم

أمكن مع سائق تاكس من زملائنا القدامى فانظري كيف رمى
لى الحظ بهذه السيارة .

- ألا ترى أنني نافعة دائماً ؟
- دائماً ، وكنت رائعة ، لم لا تشتغلين ممثلة ؟
- ولكنى فرعت أول الأمر حقيقة ..
- وبعد ذلك ؟
- أرجو أن أكون قد أتقنت دورى حتى لا يشك فى ..
- لم يكن فى رأسه عقل ليشك فى أحد ..
- واتجه رأسها نحوه ثم سألته :
- لم تريد المسدس والسيارة ؟
- لزوم العمل ..
- يا خبر ! ، متى خرجت من السجن ؟
- أول أمس .
- وتعود الى التفكير فى ذلك ؟
- هل يسهل عليك تغيير صنعتك ؟
- فلم تجبه ونظرت الى الطريق المظلم الذى تلتصق أرضه
بضوء السيارة وقد اقترب الجبل عند المنعطف كقطعة من الليل
أشد كثافة ، ثم قالت برقة :
- أتدرى كم حزنت عندما علمت بسجنك ؟
- كم ؟
- بشيء من الحدة :
- متى تكف عن السخرية ؟

- لكنى جاد جدا وواثق من صدق قلبك ..
 — أما أنت فلا قلب لك ..
 — حجزوه فى السجن كما تقضى التعليمات ..
 — أنت داخل السجن بلا قلب ..
 لهم الالاحاح على حديث القلوب . اسألى الخائنة واسألى
 الكلاب واسألى البنت التى أنكرتنى .
 — سنوفق يوما الى العثور عليه ..
 — وأين تبیت هذه الليلة؟.. هل تدرى زوجتك أين أنت ؟
 — لا أظن !
 — هل أنت ذاهب الى بيتك ؟
 — لا أظن ، ليس الليلة على أى حال ..
 فقالت برجاء :
 — تعال الى بيتى ..
 — تسكنين وحدك ؟
 — شارع نجم الدين وراء قرافة باب النصر ..
 — رقمه ؟
 — البيت الوحيد فى الشارع ، تحته وكالة خيش ، ووراءه
 القرافة ..
 ضحك سعيد قائلا :
 — يا له من موقع فريد !

فجارته في ضحكته ثم قالت :

— لا يعرفني هناك أحد ، ولم يزرني فيه أحد ، ستكون أول رجل يدخله ، وشقتي في أعلى دور ..

وانتظرت كلمته ولكنه شغل بمراقبة الطريق الذي ضاق عرضه ما بين الجبل وبين البيوت ابتداء من مسكن الشيخ على الجنيدى ، ثم أوقف السيارة عند رأس الدراسة والتفت إليها قائلاً :

— هنا مكان مناسب لنزولك ..

— ألا تأتى معى ؟

— سأتى فيما بعد ..

— أين تذهب في هذه الساعة من الليل ؟

— اذهبنى من فورك الى القسم ، واحكى لهم ما حدث باحرف كأنك لم تشاركى فيه ، وأعطى لهم أوصافا بعيدة عنى كل البعد ، أبيض سمين فى خده الأيمن أثر جرح قديم ، قولى أنى خطفتك وسرقتك واعتديت عليك ..

— اعتديت على ؟

فاستترد جادا رغم ملاحظتها :

— وأن ذلك كان فى صحراء زينهم ، وأنى قذفت بك خارجا ثم هربت بالسيارة ..

— وهل تزورنى حقا ؟

— نعم ، أعدك بهذا وعد رجل ، هل تحسنين التمثيل في

القسم كما فعلت في السيارة ؟

— ان شاء الله ..

— مع السلامة ..

ثم انطلق بالسيارة

الفصل السابع



قمة النجاح أن يقتلا معا ، نبوية وعليش . وما فوق ذلك .
أن تصفى الحساب مع رءوف علوان ، ثم الهرب ، الهرب الى
الخارج ان أمكن . ولكن من يبقى لسناء ؟ . الشوكة المنغرزة
في قلبي . أنت تندفع بأعصابك بلا عقل . عليك أن تنتظر طويلا
وتدبر أمرك ثم تنقض كالحداة . الآن لا فائدة من الانتظار .

أنت مطارد . منذ علم بالافراج عنك وأنت مطارد . وبحادثة
السيارة ستشتد المطاردة . ومحفظة ابن صاحب المصنع لا تحوى
الاجنبيات معدودات فهذا أيضا من سوء الحظ . ان لم
تضرب سريعا انهار كل شيء . ولكن من يبقى لسنا ؟ .
الشوكة المنغزة في قلبى . المحبوبة رغم انكارها لى . هل
أترك أمك الخائنة اكراما لك ؟ . أريد جوابا فى الحال . كان
يحوم حول البيت القائم على مفرق ثلاث عطفات بحارة سكا
الامام فى ظلمة حالكة ، والسيارة تنتظر فى نهاية الطريق من
ناحية ميدان القلعة . أغلقت الدكاكين وخلا الطريق ، وظاهر
أن أحدا لم يكن يتوقعه . فى هذه الساعة يأوى كل مخلوق الى
جحره . لا ينتظر أن يدهمه أحد ليحاسبه . وربما أعد عدته
ولكنه — هو — لن ينثنى عن عزمه . ولو عاشت سناء وحيدة
العمر كله . ذلك أن الحياة بشعة جدا يا أستاذ رءوف . وتطلع
الى نوافذ البيت ويده قابضة على مسدسه فى جيبه . الحياة بشعة
يا عليش . ولكى تصفو الحياة للأحياء يجب اقتلاع الحبائث
الاجرامية من جذورها . واقترب من باب البيت ملاصقا للجدار
ثم دخل . وصعد السلم فى حذر شديد . وظلام دامس مارا
بالدور الأول فالثانى ثم الثالث . ها هو الباب المغلق على أدنى
النوايا والشهوات . من سيفتح اذا طرق الباب ؟ . هل تجىء
نبوية ؟ . هل يكمن المخبر فى مكان ما ؟ . النار تنتظر المجرمين .
ولو اضطر الى اقتحام الشقة . لا بد أن يعمل ، وأن يعمل فى

الحال ، فحرام أن يتنفس عlish سدره يوما كاملا وسعيد
مهرا ن طليق . وستفوز بالهرب سالما . كما فزت عشرات المرات .
وكما تتسلق العمارة في ثوان ، وكما تثب من الدور الثالث
فتصل الأرض سالما ، وكما تطير اذا شئت . وطرق الباب
يبدو ضروريا ولكنه سيثير الريب ، وبخاصة في هذه الساعة ،
وستصوت نبوية حتى تملأ الدنيا غبارا ، ويجيء الأندال ،
ويظهر المخبر أيضا . فلتحطم الشرعة . هذه هي الفكرة التي
كانت تدور في رأسه وهو قادم بالسيارة من بعيد ، ها هو يعود
اليها أخيرا . وأخرج مسدسه ، ووجه منه ضربة الى زجاج
الشرعة من خلال القضبان الملتوية فتحطم وتناثر محدثا صوتا
كالصراخ المبحوح في صمت الليل . اقترب من الباب حتى كاد
يلتصق به ، وصوب مسدسه الى الداخل ، وانتظر بقلب خافق
وعين غائصة في ظلمة الردهة . وترامى صوت يصيح « من ؟ » .
صوت رجل ، صوت عlish سدره ، مبيّزه رغم نبض الصدغ
المدوّس . وفتح باب في الناحية اليسرى فخرج منه ضوء
خفيف ، ثم لاح شبح رجل يتقدم في حذر . ضغط سعيد على
الزناد فانطلقت الرصاصة كصرخة عفريت في الليل . وصرخ
الرجل بدوره وتهاوى فأدركه بأخرى قبل أن يستقر فوق
الأرض . وانطلق صراخ حاد مرتعب مستغيث بأس ، صوات
نبوية فصاح بها « سيأتي دورك ، لا مهرب مني ، أنا الشيطان
نفسه » . واستدار ليهرب ، ومضى يثب فوق الدرجات بلا

حرص حتى بلغ بشر السلم في ثوان . وقف تنتصت لحظة ثم مرق من الباب ، فسار على كعب من الجدار في هدوء . ثم سمع نواذ وهي تفتح وأصواتا وهي تتلاقى في تساؤل ونداءات غامضة . وبلغ موقف السيارة عند رأس الطريق فجذب بابها ودخل . وعند ذلك لمح شرطيا قادمًا يجرى من الميدان نحو عطفة سكة الامام فغاص في أرض السيارة . وواصل الشرطي جريه نحو الصراخ فلبث في مكمنه حتى اطمأن الى بعده من وقع قدميه ثم نهض في حذر شديد فجلس وراء عجلة القيادة وانطلق بالسيارة دون ابطاء . ودار مع الميدان في سرعة طبيعية والضجة تلاحق حواسه ، ولكنها استقرت في أعصابه حتى بعد انقطاعها عن حواسه . ولفه ذهول شامل فساق السيارة بلا وعى . القاتل . هناك رءوف علوان ، الخائن الرفيع الممتاز ، أهم في الواقع من سدره وأخطر . القاتل ، أنت من زمرة القتلة ، جنسية جديدة ، ومصير جديد ، خطف أرواح خبيثة بعد خطف أشياء ثمينة . سيأتي دورك ، لا مهرب منى ، أنا الشيطان نفسه . بفضل سناء وهبتك الحياة ، لكنى أحطت بك بعقاب أشد من الموت ، هو الخوف من الموت ، الذعر الأبدي ، لن تذوقى للراحة طعما ما دمت حيا . انحدرت السيارة في شارع محمد على وما زال يسوقها بلا وعى ولا فكرة عنده البتة عن المكان الذى يقصده . الآن يردد كثيرون اسم القاتل ، فعلى القاتل أن يخفى ، عليه أن يحذر ما أمكنه جبل المشنقة . لا تمكن

عشماوى من أن يسألك « ماذا تطلب ؟ » وعلى الحكومة أن تجود بهذا السؤال في مناسبة أفضل . واتبه الى نفسه فاذا بالسيارة تقطع آخر شوط في شارع الجيش مندفعة نحو العباسية فانزعج لهذه العودة الغريبة الى المكان الخطر . وضاعف من سرعتها حتى بلغ منشية البكرى في دقائق . ثم وقف عند أول شارع متفرع من الطريق العام . وتركها في هدوء دون أن يلتفت يمنة أو يسرة . سار على مهل كأنه يتريض ، وشعر بخمود ، ثم بألم كأنه رد فعل للمجهود العصبى الشديد الذى بذله . لا مأوى لك الساعة . ولا أى ساعة . نور ؟ . من المجازفة أن يذهب اليها الليلة بالذات ، ليلة التحقيق والشبهات . والظلام يجب أن يمتد الى الأبد ..

الفصل الثامن

دفع باب مسكن الشيخ فأطاع دون مقاومة ، ثم دخل وورده وراءه . وجد نفسه في الحوش غير المسقف ، ولاحظ النخلة فارعة كأنها ممتدة في الفضاء حتى النجوم الساهرة ، فقال لنفسه يا له من مكان صالح للاختفاء ! . وحجرة الشيخ مفتوحة بالليل كما هي بالنهار وغارقة في الظلمة وكأنها تنتظر أوبته فمضى إليها في هدوء . سمع الصوت يغمغم فلم يميز من غمغمته الا « الله » . واستمر يغمغم كأنه لم يشعر أو لا يريد أن يشعر بدخوله . انزوى في ركن باليسار جنب كتبه ، وانحط على الحصيرة يبدلته وحذائه المطاط ومسدسه ، ثم مد ساقيه واستند الى ذراعيه ملقيا برأسه الى الورا في اعياء شديد . رأس كخلية النحل ، وأين المفر ؟ . تريد أن تستعيد سماع الطلق الناري ، وصوات نبوية ، وأن تسعد بأذنك لم تسمع لثناء صرخة واحدة . ويحسن أن تقول للشيخ « السلام عليكم » ، ولكن نبرات صوتك عاجزة . عجز مفاجيء كالفرق . وكنت تظن أنك ستموت نوما بمجرد أن يمس جلدك الأرض ! . تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم

الى ذكر الله ، متى ينام هذا الرجل الغريب ؟ . لكن الرجل
الغريب ترنم بصوت مرتفع نوعا لأول مرة :

الوجد عندى جحود ما لم يكن عن شهودى

ثم قال بصوت خيل اليه أنه ملاً الحجره « انفتحت عيون
قلوبهم وانطبعت عيون رءوسهم » . اتزع من آلامه ابتسامه
وقال لنفسه : لذلك فهو لا يشعر بى . ولكنى أنا أيضا لا أشعر
بنفسى . وبغته سبح الأذان فوق أمواج الليل الهادئة . وذكر
ليلة قضاها مسهدا حتى الأذان شوقا الى سعادة موعودة فى
التهار التالى لم يعد يذكر عنها شيئا . ونهض عند سماعه الأذان
هانئا بالخلاص من رقاد أليم فتطلع من النافذة الى زرقة الفجر
وابتسامه المشرق وفرك يديه جبورا بالسعادة الوشيقة التى لم
يعد يذكر عنها شيئا . لذلك فهو يحب الفجر للنغمة والزرقة
والابتسامه والسعادة المنسية . وها هو الفجر مرة أخرى ولكنه
من الاعياء لا يستطيع حراكا ولا مسدسه . وقام الشيخ للصلاة
فأشعل المصباح ، ولم يبد اتبهاها لوجوده . وفرش سجادة
الصلاة واتخذ مكانه فوقها واذا به يتساءل :

— ألا تصلى الفجر ؟

فلم يستطع جوابا ، الى هذا الحد بلغ منه الاعياء . وأقام
الشيخ الصلاة ، وما لبث سعيد أن غاب عن الوجود . حلم بأنه
يجلد فى السجن رغم حسن سلوكه . وصرخ بلا كبرياء وبلا
مقاومة فى ذات الوقت . وحلم بأنهم عقب الجلد مباشرة سقوه

حليبا . ورأى سناء الصغيرة تنهال بالسوط على رءوف علوان في بئر السلم . وسمع قرآنا يتلى فأيقن أن شخصا قد مات . ورأى نفسه في سيارة مطاردة عاجزة عن الانطلاق السريع لخلل طارئ في محركها واضطر الى اطلاق النار في الجهات الأربع ، ولكن رءوف علوان برز فجأة من الراديو المركب في السيارة فقبض على معصمه قبل أن يتمكن من قتله وشد عليه بقوة حتى خطف منه المسدس ، عند ذلك هتف سعيد مهرا ن : اقتلني اذا شئت ولكن ابنتي بريئة ، لم تكن هي التي جلدتك بالسوط في بئر السلم وانما أمها ، أمها نبوية وبايعاز من عليش سدره ، ثم اندس في حلقة الذكر التي يتوسطها الشيخ على الجنيدى كى يغيب عن أعين مطارديه فأنكره الشيخ وسأله : من أنت وكيف وجدت بيننا فأجابه بأنه سعيد مهرا ن ابن عم مهرا ن مريده القديم وذكره بالنخلة والدوم والأيام الجميلة الماضية ، فطالبه الشيخ ببطاقة الشخصية فعجب سعيد وقال ان المريد ليس في حاجة الى بطاقة ، وانه في المذهب يستوى المستقيم والخاطئ فقال له الشيخ انه يطالبه بالبطاقة ليتأكد من أنه من الخاطئين لأنه لا يجب المستقيمين فقدم له مسدسه وقال له ثمة قتيل وراء كل رصاصة ناقصة في ماسورته ولكن الشيخ أصر على مطالبته بالبطاقة قائلا ان تعليمات الحكومة لا تتساهل في ذلك فعجب سعيد مرة أخرى وتساءل عن معنى تدخل الحكومة في المذهب فقال الشيخ ان ذلك كله تم بناء على اقتراح للأستاذ

الكبير رءوف علوان المرشح لوظيفة شيخ المشايخ فمجب سعيد للمرة الثالثة وقال ان رءوف بكل بساطة خائن ولا يفكر الا في الجريمة فقال الشيخ انه لذلك رشح للوظيفة الخطيرة ووعده بتقديم تفسير جديد للقرآن الشريف يتضمن كافة الاحتمالات التي يستفيد منها أى شخص فى الدنيا تبعاً لقدرته الشرائية ، وأن حصيلة ذلك من الأموال ستستغل فى انشاء نواد للسلاح ونواد للصيد ونواد للانتحار فقال سعيد : انه مستعد أن يعمل أميناً للصندوق فى ادارة التفسير الجديد وسيشهد رءوف علوان بأمانته كما ينبغى له مع تلميذ قديم من أنه تلاميذه ، وعند ذلك قرأ الشيخ صورة الفتح وعلقت المصاييح بجذع النخلة وهتف المنشد يا آل مصر هنيئاً فالحسين لكم ..

وفتح عينيه فرأى الدنيا حمراء ولا شىء فيها ولا معنى لها ثم رأى الشيخ متربعا فى هدوء يكتنفه البياض الناصع من الجلباب الفضفاض والطاقيه واللحية ، فلما نادت عن سعيد حركة لدى استيقاظه نظر الشيخ اليه فى هدوء أيضا . وجلس سعيد فى عجلة ورنا الى الشيخ كالمعتذر ، وفى الوقت نفسه دهته الذكريات فى سرعة اللهب . وقال الشيخ :

— نحن فى العصر وأنت لم تذوق طعاما ..

نظر سعيد الى الكوة ثم أعاد الى الشيخ النظر وهو يتمنم فى ذهول :

— العصر !

— نعم ، قلت أدعه فى نومه ، وهداية الله تنزل فى أى حال
تريدها مشيئته ..

وداخله القلق ، ترى ألم يره أحد فى نومه طوال النهار ؟
— كنت أشعر فى نومى بدخول أناس كثيرين ..

— أنت لم تشعر بشيء ، ومع ذلك فقد جاء واحد بلقمة
الغداء ، وجاء آخر فكنس المكان وسقى الصبارة والنخلة
وفرش الحوش استعدادا لاستقبال المحبين !

فسأل باهتمام :

— متى يجيئون يا مولاي ؟

— مع المغرب ، متى جئت أنت ؟

— مع الفجر ..

وصمت مليا ، ثم مسح الشيخ على حيته وقال :

— أنت تعيس جدا يا بنى !

فتساءل فى قلق :

— له ؟

— نعمت نوما طويلا ولكنك لا تعرف الراحة ، كطفل ملفى
تحت نار الشمس ، وقلبك المحترق يحن الى الظل ولكن يمعن
فى السير تحت قذائف الشمس ، ألم تتعلم المشى بعد ؟ !

فقال سعيد وهو يدعك عينيه اللوزيتين المحمرتين :

— فكرة مزعجة أن يراك الآخرون وأنت نائم ..

فقال الشيخ بلا اكتراث :

— من غاب عن الأشياء غابت الأشياء عنه ..

ومر بيده بخفة فوق جيب المسدس وساءل نفسه ترى ماذا يصنع هذا الشيخ لو أنه صوب نحوه مسدسه ؟ . متى يمكن أن يهتز هدوءه المثير ؟ . وعاد الشيخ يسأله :

— أنت جائع ؟

— كلا .

فقال وشبه ابتسامة تلوح في عينيه :

— اذا صح الافتقار الى الله صح الغنى بالله ..
— اذا !

ثم بلهجة ساخرة :

— مولاي ، ماذا كنت تفعل لو ابتليت بمثل زوجتي ولو أنكرتك كما أنكرتني ابنتي ؟

فلاحت في العينين الصافيتين نظرة رثاء وقال :

— العبد لله لا يملكه مع الله سبب ..

اقطع لسانك قبل أن يخونك ويعترف . أنت تود أن تعترف له بكل شيء . ولعله ليس في حاجة الى ذلك ، لعله رأى وأنت تطلق النار ، لعله يرى أكثر من ذلك . وارتفع صوت تحت الكوة ينادى بجريدة أبو الهول فقام بسرعة الى الكوة فناده ختم ممد يده بالقرش وعاد بالجريدة الى مجلسه وقد نسي الشيخ تماما . التصقت عيناه بعنوان ضخيم أسود « جريمة شنيعة بالقلعة ! » وجرت عيناه على الأسطر بسرعة جنونية . ولم يفهم

شيئا . أهي جريمة أخرى ؟ . لكن ها هي صورته ، ها هي صورة نبوية ، ها هي صورة عليش صدره . فمن المخرج في دمه ؟ . قصته بارزة أمام عينيه ، فضيحة مذاعة كالغبار الخماسيني ، الرجل الذي خرج من السجن ليجد امرأته زوجة لأحد أتباعه ، ولكن من المخرج في دمه ؟ . انه لا يفهم شيئا وينبغي أن يقرأ من جديد . ينبغي أن يعرف من المخرج في دمه وكيف استقرت رصاصته في صدره . القتل رجل آخر يرى صورته لأول مرة في حياته . اقرأ من جديد . لقد ترك عليش سدره ونبوية بيتهما في نفس اليوم الذي زارهما فيه بحضور المخبر والأعوان ، وحلت مكانهما في الشقة أسرة جديدة ، ولعلها دفعت خلو رجل . الصوت الذي سمعه لم يكن صوت عليش سدره . الصوت الذي سمعه لم يكن صوت نبوية ، الجسم الذي سقط كان جسم شعبان حسين العامل بمحل الخردوات بشارع محمد علي . سعيد مهران جاء ليقتل زوجته وصاحبه القديم فقتل الساكن الجديد شعبان حسين . وشهد أحد جيران عليش بأنه رأى سعيد مهران وهو يغادر البيت عقب ارتكاب الجريمة وأنه نادى الشرطى ولكن صوته ضاع في الضجة التي شملت الطريق كله . أى هزيمة جنونية ، أى جريمة بلا جدوى ، وسيطارده جبل المشنقة وعليش آمن ، هذه هي الحقيقة كأنها جوف قبر افكشفت . وانتزع عينيه من الجريدة فرأى الشيخ على الجنيدى ينظر الى السماء من خلال الكوة ويبتسم . ولسبب ما



أخافته ابتسامته . ورغب في أن يقف أمام الكوة ليمد بصره في
خط نظر الشيخ لعله يرى في السماء ما جعله يبتسم . لكنه لم
ينفذ رغبته . ليبتسم وليطلع على مكنونه اذا شاء ولكن
سيجئ المريدون عما قريب وربما تعرف عليه بعضهم ممن رأوا
صورته في الجريدة . آلاف وآلاف يتأملون صورته الآن بغرابة
وخوف ولذة بهيمية خفية . قضى عليه بلا جدوى ، مطارد
وسيطل مطاردا الى آخر لحظة من حياته ، وحيد عليه أن يحذر
حتى صورته في المرأة ، حتى بلا حياة كجثة محنطة ، سيجرى
من جحر الى جحر كفأر يتهدده السم والقطط وهراوات
المشمئين ، كل هذا وأعداؤه يمرحون . والتفت الشيخ نحوه
وقال بركة :

— أنت متعب ، قم فاعسل وجهك ..

فقال بضيق وهو يطوى الجريدة :

— سأذهب وأريحك من منظري ..

فقال في مزيد من الرقة :

— هذا مأواك ..

— نعم ، ولكن لم لا يكون لى مأوى آخر ؟

فقال وهو يطرق :

— لو كان لك آخر ما جئتنى !

اذهب الى الجبل حتى يهبط الظلام . لا تغادره حتى يهبط
الظلام . تحاش الضوء ولذ بالظلام . تعب بلا فائدة . ذلك أنك

قتلت شعبان حسين . من أنت يا شعبان ؟ . أنا لا أعرفك وأنت لا تعرفنى . هل لك أطفال ؟ . هل تصورت يوما أن يقتلك انسان لا تعرفه ولا يعرفك . هل تصورت أن تقتل بلا سبب ؟ . أن تقتل لأن نبوية سليمان تزوجت من عيش سدره ؟ ، وأن تقتل خطأ ولا يقتل عيش أو نبوية أو رءوف صوابا ؟ وأنا القاتل لا أفهم شيئا ولا الشيخ على الجنيدى نفسه يستطيع أن يفهم . أردت أن أحل جانبا من اللغز فكشفت عن لغز أغمض - وتهد بصوت مسموع ، وعاد الشيخ يقول :

— يا لك من متعَب !

— ودنياك هي المتعبة .

فقال الشيخ فى رضى :

— تغنى بهذا أحيانا .

ونفض ، ثم قال وهو يهم بالذهاب :

— وداعا يا مولاي ..

فقال الشيخ كالمحتج :

— قول لا معنى له على أى وجه قلته ، قل الى اللقاء ...

الفصل التاسع



يا له من ظلام ! . انقلب خفاشا فهو أصلح لك . وهذه الرائحة الدهنية المتسربة من باب شقة ما في هذه الساعة من الليل ! . متى تعود نور وهل تعود بمفردها ؟ . هل يمكن أن أبقى في بيتها حتى أنسى ؟ . لعلك تظن يا رءوف أنك تخلصت مني إلى الأبد ؟ . بهذا المسدس أستطيع أن أصنع أشياء جميلة على

شرط ألا يعاكسنى القدر . وبه أيضا أستطيع أن أوقظ النيام
فهم أصل البلايا . هم خلقوا نبوية وعليش ورءوف علوان ..
وخيل اليه أنه سمع وقع أقدام صاعدة ، ثم تأكد من ذلك .
ونظر من فوق الدرايزين . فرأى نورا خافتا يتحرك في بطن
على الجدران ، نور عود ثقاب كما ظن . واقتربت الأقدام ثقيلة
متمهلة فقرر أن ينبهها الى وجوده تفاديا من مفاجأة مزعجة .
وتنحى فجاء صوتها يسأل في ارتياح :

— من ؟

فأدلى برأسه الى أقصى حد ممكن وقال هامسا :

— سعيد مهران ..

وأسرعت الأقدام فى خفة حتى انتهت الى مكانه وهى تلهث
والعود يلفظ أنفاسه . وقبضت على عضده فى انفعال ، وببرة
تنازعها الابتهاج وتقطع الأنفاس قالت :

— أنت ! .. ، يا كسوفى .. ، انتظرت طويلا .. ؟

وفتحت الشقة ثم دخلت جاذبة اياه من ذراعه . وأضاءت
مصباحا فظهر مدخل مستطيل صغير خال من أى شىء . ومالت
به الى حجرة جانبية كشفت مصباحها الكهربائى عن حجتها
المتوسط وأضلعها المربعة ، ثم سارعت الى النافذة ففتحتها على
مصراعها لتلطف من جوها المخبث . وارتمى على احدى الكنبتين
المتقابلتين وهو يقول متشكيا :

— جئت عند منتصف الليل ، ولبثت أنتظر حتى شاب

شعري ..

فجلست على الكنبه الأخرى بعد أن أزاحت عنها أقمشة مفصلة وكوماً من القصاصات، وقالت :

— الحق أنه لم يكن عندي أدنى أمل في أنك ستجىء ..
وتلاقت الأعين المتعبة ، فابتسم ليذارى تحجر باطنه ،
وتساءل :

— حتى بعد وعدى الصريح؟!!

فابتسمت ابتسامة خفيفة ولم تجب ، لكنها قالت :

— أمس استجوبوني في القسم حتى أزهقوا روحي ، أين
السيارة؟

فقال وهو يخلع جاكته ويرمى بها الى جانبه كاشفا عن قميص طحينى متلبد بالعرق والغبار .

— قضت الحكمة بأن أتركها رغم حاجتى اليها ، سيجدونها
ويردونها الى صاحبها كما ينبغي لحكومة تتحيز لبعض اللصوص
دون البعض!

فسألته في قلق :

— ماذا فعلت بها أمس؟

— لا شيء البتة في الحقيقة ، وستعلمين كل شيء في

حينه ..

ونظر نحو النافذة وهو يتنفس في عمق قائلاً :

— جهة بحرية فيما أظن ، هواء لطيف حقا ..

— خلاء حتى باب النصر ، هنا القرافة ..

فابتسم قائلا :

— لذلك فهو أؤها غير فاسد !

تنظر اليك بنهم ، وأنت تمتعض ضجرا . وبدل العزاء تتذكر
طعنة في الكبرياء . وقالت نور راجعة الى أفكارها الأولى :

— انتظرت طويلا على السلم ، أنا آسفة جدا ..

فامتحنها بنظرة غامضة وهو يقول :

— سأنزل ضيفا عندك لأجل طويل ..

فارتفع رأسها ابتهاجا وهي تقول :

— امكث طول العمر ان شئت ..

فأوماً الى النافذة وهو يقول باسمها :

— حتى أتقل الى الجيران !

وبدا أنها لم تسمعه لتفكير لاح في عينيها ثم تساءلت :

— وأهلك ألا يسألون عنك ؟

فأجاب وهو ينظر الى حذائه المطاط :

— لا أهل لي ..

— أعنى زوجتك ؟

تعنى الألم والجنون والرصاص الضائع . تريد اعترافا مؤذينا
للكرامة . وستجد أن فتح القلب المغلق يزداد عسرا . ولكن
ما جدوى الكذب والجرائد تنعق بالفضيحة ؟

— قلت لا أهل لى ..

أنت تفكرين فى معنى القول . ويشرق وجهك بالسرور .
وأنا آكره هذا السرور . وأرى الآن أن الذبول استقر تحت
عينيك . وتساءلت :

— الطلاق ؟

لوح فى ضجر قائلا :

— طلقت وأنا فى السجن ، ولندع هذا الحديث جانبا .

فقالت بغضب :

— خنزيرة ! ، مثلك يَنتظر ولو حكم عليه بتأييدة !

الماكرة . مثلى لا يجب الرثاء . احذرى الرثاء . يا ضيعة

الرصاص فى الصدور البريئة !

— الحق أنى أهملتها كثيرا !

— على أى حال هى امرأة لا تستحقك !

صدقت . ولا أى امرأة . لكنها مفعمة حيوية وأنت تترنحين

فوق الهاوية . نفخة واحدة ثم تنطفئين . وما لك فى قلبى سوى

الرثاء ، وقال :

— لا يجوز أن يشعر بى أحد !

فقالت ضاحكة وكأنها وثقت من امتلاكه الى الأبد :

— أحظك فى عينى ، واكحل عليك !

ثم برجاء :

— هل فعلت شيئا خطيرا ؟

هز منكبيه باستهانة ، فقامت وهي تقول :
— سأعد لك مائدة ، عندى طعام وشراب ، أتذكر كم كنت
جافاً معى فى الماضى ؟

— لم يكن عندى وقت للحب ..
فلحظته بمتاب وهي تقول :
— وهل يوجد ما هو أهم منه ؟ .. وكنت أقول لى نفسى
لعل قلبه حجر ، ومع ذلك فلم يحزن أحد على سجنك كما
حزنت ..

— لذلك لجأت اليك أنت !
فقال بامتعاض :

— أنت لم تقابلنى الا صدفة ، ولعلك كنت نسيتهنى تماما ..
فقطب عمدا وهو يتساءل :

— أتظنين أنى لا أستطيع أن أجد مكانا آخر ؟
فأشفتت من غضبه ، وأقبلت عليه فأحاطت خديه براحتيهما
وهى تقول معتذرة :

— نسيته أن العسكرى يمنع زوار الحديقة من معاكسة
الأسد ، آسفة ، ولكن ما أسخن وجهك ، وذقنك خشنة جدا ،
ما رأيك فى دش بارد ؟ !
فأعرب عن ترحيبه بابتسامة :

— الى الحمام ، وعندما تخرج ستجد المائدة معدة ، سنأكل
فى حجرة النوم فهى أجمل من هذه الحجرة وتظل مثلها على
القرافة ..

الفصل العاشر

يا للعدد العديد من المقابر . الأرض تمتد بها حتى الأفق .
رافعة أيديها في تسليم وان يكن شيء لا يمكن أن يهددها .
مدينة الصمت والحقيقة . ملتقى النجاح والفشل والقاتل
والقتيل . مجمع اللصوص والشرطة حيث يرقدون جنبا الى
جنب في سلام لأول ولآخر مرة . وشخير نور يبدو أنه لن ينقطع
الا حين تستيقظ عند الأصيل . وستبقى أنت في هذا السجن
حتى ينسالك البوليس ، ولكن هل ينسالك البوليس حقا ؟ .
وبقدر ما يخون الموت الأحياء فستذكر بالقبور الحياة ثم تذكر
بالحياة نبوية وعليش ورءوف . وأنت نفسك ميت منذ انطلقت
الرصاصة العمياء ، ولكن عليك أن تطلق مزيدا من الرصاص .
وسمع ثأؤبا كالتأوه فتراجع عن شيش النافذة ملتفتا نحو
الفراش فرأى نور جالسة ، شبه عارية ، منكوشة الشعر تعبسة
القسمات . نظرت اليه بارتياح وهي تقول :

-- حلمت أنك بعيد وأننى أتظرك كالمجنونة ...

فقال في كآبة :

-- هذا في الحلم ، أما في الحقيقة فأنت التى ستذهبن بعيدا

وأنا الذى سأنتظر ..

وذهبت الى الحمام ثم عادت وهى تجفف رأسها ووجهها
وتابع يديها وهما تصوران وجهها فى صورة جديدة ، بهيجة
شابة . هى — مثله — فى الثلاثين ولكنها تكذب علنا لتبدو
أصغر ، وسخافات ورتائل لا حصر لها تمارس علنا ، ليست
السرقة كذلك ويا للأسف . وأوصلها حتى الباب وهو يقول :

— لا تنسى الجرائد ..

ومضى الى حجرة الجلوس فاستلقى على كنبه . وحيد بكل
معنى الكلمة حتى كنبه منسية عند الشيخ على الجنيدى ،
وتسلى بالنظر الى السقف الأبيض الباهت المعروق وكأنه مرآة
تعكس بساط الحجرة المنجرد . ومن خلال النافذة بدت سماء
المغيب كدرة يدور بها سرب من الحمام من آن لآن .
وجفولك يا سناء مؤلم حقا كمنظر القبر . ولا أدرى ان كنا
سنلتقى مرة أخرى ، أين ومتى . ولن يخفق قلبك بحبى ن
هذه الحياة المليئة بالرصاصات الطائشة . وكالرصاص تطيش
رغائب كثيرة فى الدنيا مخلقة وراءها سلسلة من الحلقات
المحزنة . ابتداء من الحلقة الأولى عند بيت الطلبة فى طريق
مديرية الجيزة . لم يكن عيش سدره الا شخصا عابرا لا قيمة
له أما نبوية فقد هزت القلب حتى اقتلعت من جذوره . ولرب أن
الحياة الكامنة ظهرت فى صفحة الوجه كما تظهر آثار الحميات
الخبثية لما تجلى جمال فى غير موضعه ولأعفيت قلوب كثيرة من
عبث المكائد . والبقال يقع دكانه أمام بيت الطلبة وتجرى نبوية

حاملة السلطانية لتشتري ما تشاء في ثياب مهندمة بل تعد زينة
 وسط أمثالها من الخاديات لذلك عرفت بخادمة الست التركية
 نسبة الى تركية عجوز كانت تقيم بمفردها في بيت محاط بحديقة
 كبيرة في آخر الطريق وكانت غنية ومتكبرة وتفرض على كل
 من يمت اليها بسبب أن يكون جميلا وأنيقا ونظيفا فتبتدئ نبوية
 دائما ممشطة الشعر مناسبة الضفيرة حتى العجز منتعلة شبيها
 يطوق جلبابها حيوية جسد ثائر وحتى الأعين غير المسحورة أى
 أعين الآخرين وصفت جمالها بأنه جمال فلاحى لذيد الطعم
 باستدارة الوجه الحمرى والعينين العسليتين والأنف القصير
 الممتلىء والنهم المشرب بماء الحياة والدقة الخضراء في الذقن
 كالحال وكان يقف عند باب بيت الطلبة عند الانتهاء من الخدمة
 ينظر نحو آخر الطريق الذى تجيء منه حتى تلوح لعينيه القامة
 البديعة والمشية الحبيبة وتقترب وتقترب باعثة باقترابها أجمل
 مشاعر الحياة كأنها موسيقى عذبة تستقبل بها حيث حلت
 وتتبعها عيناك في نشوة الخمر وتندس معها بين عشرات الواقفات
 أمام البقال وتغيب حيناً وتظهر حيناً وأنت تزداد غراماً وسؤالا
 ورغبة في عمل شيء أى شيء ولو كلمة أو إشارة أو تعويذة وتمضى
 هى أخيرا في طريق العودة منذرة بالاختفاء بقية نهار وليلة كاملة
 فتصعد منك تنهيدة مريرة وتبوخ النشوة رويداً وتخرس
 العصافير فوق أشجار الطريق وينتشر جو الحريف فجأة ثم مرة
 تلاحظ أن عودها يمس تحت نظراتك وأنها تته دلالة فلا تقف

أنت عند حد وباندفاعك الطبيعي تسبقها في الطريق ثم تعترض
سبيلها عند النخلة الوحيدة القائمة في نهاية الحقول بجراة غريبة
تعترض سبيلها حتى ذهلت أو تظاهرت بالذهول وسألتك
محتجة من أنت فأجبت بدهشة من أنا أنت تسألين من أنا ألا
تعرفين من أنا أنا صاحب العين التي يعرفها كل شبر في كائنك
فقلت بحدة أنا لا أحب قلة الأدب فقلت ولا أنا أنا مثلك لا
أحب قلة الأدب وعلى العكس أحب الأدب والجمال والرقعة وكل
أولئك هو أنت أنت ألا تعرفين الآن من أنا ولا بد أن أحمل
عك هذه السلة وأوصلك حتى باب البيت فقالت لست في
حاجة الى مساعدتك ولا تقف في طريقي مرة أخرى وسارت
فسرت الى جانبها متشجعا بابتسامة خفية ضاعت في الاكفهرار
المصطنع أحسست بها كما تحس بأول نسمة رقيقة متسللة في
ليلة زامته فقالت ارجع يجب أن ترجع ستى تجلس في النافذة
وستراك اذا تقدمت أكثر من هذا خطوة واحدة قلت أنا عنيد
وإذا أردت أن أرجع فلنرجع معا بضع خطوات ليس الا عند
نخلتنا الوحيدة اذ لا بد أن أتكلم ولماذا لا أتكلم هل أنا لا أملا
العين وهزت رأسها في عنف ولكنها أبطأت السير وغمغمت في
احتجاج وغضب ولكنها أبطأت في السير وثقوس عثفها كالقطة
المتنمرة ولكنها أبطأت في السير فلم أعد أشك في أنى وصلت
وأن نبوية لا تخلو من بعض مشاعري وأنها مطلعة تماما على تاريخ
وقفاتي. التنهدية عند بيت الطلبة وأن نظرات الطريق ستتحوّل



الى أمور لها خطرها في حياتي وحياتها و حياة الدنيا جميعا التي
ستزداد بها عدا فقلت الى غد وتوقفت خشية عليها من لذع لسان
تركى عجوز يقيم في شارع مديريتنا كاللغز ثم تراجعت الى النخلة
ومن فرحتى تسلمتها بسرعة قرد وقفزت من علو ثلاثة أمتار الى
أرض مزروعة جرجيرا ثم رجعت الى بيت الطلبة وأنا أغنى
بصوتي الغليظ كأني ثور هزه الطرب وعندما دفعتك ظروف
قهريّة الى العمل في شرك الزيات مضت بك الحياة من حى الى
حى ومن بلدة الى بلدة وخفت أن يصدق عليك المثل القائل
ان البعيد عن العين بعيد عن القلب فقلت لها لنتزوج لنتزوج
على سنة الله ورسوله وأتما تقفان عند مشارف الجامعة التي
لم تدخلها ظلما ودخلها كثير من الأغبياء ولم يكن في الطريق
ضوء ولا في السماء الا هلال غليظ استقر فوق الأفق وابتهجت
ونظرت الى الأرض حتى لمع جبينها الضيق تحت شعاع الهلال
فقلت ان عملى مريح ومستقبلى هائل ومسكنى فى الدراسة
دور أرضى نظيف بطريق الجبل على مقربة من مسكن الشيخ
على الجنيدى وستعرفين الشيخ المبارك عندما تتزوج ويجب أن
تتزوج فى أقرب وقت اكراما لحبنا طويل العمر وأن لك أن
تركى ستك العجوز فقالت أنا يتيمة وليس لى الا عمة بسيدى
الأربعين فقلت على بركة الله وقبلتها أمام الهلال والفرح من
جماله عاش أحدوثة على كل لسان والزيات تقضى بعشرة
جنيهات وعليش سدره من سروره بدا كأنه صاحب الفرح

ولعب دور الصديق الأمين ولكن لم يكن صديقا على الإطلاق
وأعجب شيء أنى خدعت به وأنا الذكى الذى يخافه الجن
الأحمر كنت البطل وكان عابد البطل يحبنى ويتملقنى ويتجنب
غضبى ويلتقط فترات العيش من كدى وشطارتى وآمنت بأننى
لو أرسلته مع نبوية الى الصحراء التى تاه فيها سيدنا موسى
لظل يرانى قائما بينه وبين نبوية فلا يعيد عن الأدب وهى كيف
تميل الى الكلب وتعرض عن الأسد ولكن القذارة مركبة فى
طبعها قذارة تستحق القتل فى الدنيا وفى الآخرة وعلى شرط ألا
يطيش الرصاص الأعمى فيصيب الأبرياء ويعمى عن الأوغاد
والسفلة ويترك قلوبا يمزقها. الألم ويحرقها الغضب ويعبث بها
الجنون فتتسى كل شيء طيب فى الحياة حتى ليلة الدخلة ولعب
الصبيان فى الحارة والحب قبل الفساد ومولد سناء ورؤية وجه
سناء لأول مرة وسماع بكائها لأول مرة وحملها على الساعدين
لأول مرة وابتسامتها التى لم أحصها وليتنى أحصيتها أو صورتها
وليتنى أنسى فيما نسيت جفولها وصراخها الذى رددته أركان
الأرض وجفت بسببه الينابيع والنسائم وكافة المشاعر الطيبة فى
الوجود . وانتشر الظلام نعم انتشر الظلام فى الحجرة وخارج
النافذة وزاد صمت القبور صمتا ولا يمكن أن تضىء المصباح كى
تبقى الشقة كما تبقى عادة فى أثناء غياب نور وستألف عيناك
الظلام كما ألفت السجن وكما ألفت الوجوه الكريهة ولن تجد
فرصة للسكرك خشية أن تحدث حركة عنيفة أو ترفع صوتا منكرا

اذ يجب أن تبقى الشقة صامته كالقبر وحتى الأموات أنفسهم
لن يفظنوا لوجودك هنا والله وحده يعلم كيف تصبر على هذا
السجن والى متى كما كان يعلم وحده أنك ستقتل شعبان
حسين لا عيش سدرة ولا يد أن تخرج عاجلا أو آجلا للتجول
في الليل ولو في الأماكن الآمنة ولكن فلنؤجل ذلك الى حين
حتى يقتل البوليس تعباً في البحث عن لا شيء ولنسأل الله ألا
يدفن شعبان حسين في قبر من هذه القبور فان هذه المنطقة
القديمة لا تتحمل ثقل المفارقات القاسية واصبر اصبر حتى تعود
نور ولا تسأل متى تعود نور وعليك أن تكابد الظلمة والصمت
والوحدة ما دامت الدنيا لا تريد أن تغير من عاداتها السيئة
ونور المسكينة كذلك فحبها القديم لك ما هو الا عادة سيئة
وهو يرتطم بقلب قتله الألم والغضب وينفر من اقبالها كما ينفر
من ذبولها ولا يدري حقاً ماذا هو فاعل بها الا أن يشاربها نخب.
الضياع والأسى ويرثي لمحاولاتها الطيبة اليائسة ولن ينسى في
النهاية انها امرأة كما أن نبوية امرأة الخائنة الجبانة سيقتلها
الخوف على حياتها حتى يلتف الحبل حول عنقك أو تستقر في
قلبك رصاصة مجرمة ويشوه البوليس سيرتك فينقطع ما بينك
وبين سناء الى الأبد حتى حبك لن تدري عن صدقه شيئاً كأنه
رخصاصة طائشة وكذلك ..

واختلس النوم سعيد مهران وحلم بعض الوقت ولم يدرك
أنه كان يعلم الا عند يقظته ، عند وعيه لوجوده في الظلام

والوحدة بشقة نور بشارع نجم الدين وتأكده من أن عlish
سدرة لم يفاجئه في محبته ولم يطلق عليه الرصاص تباعا . ولم
يدر عن الوقت شيئا سرعان ما سمع همس المفتاح في القفل
وصفقة الباب وهو يعلق وشراة باب الحجره وهى تنضح بضوء
المدخل . وظهرت نور باسمه حاملة لفة كبيرة فأقبلت عليه تقبله
وهى تقول :

— وليمة ! ، معى العجاتى وتسباس ومانولى !

فقبلها متسائلا :

— شارية ؟

— لزوم العمل ، سأستحم ثم أرجع ، واليك الجرائد ..

وتابعها بعينه حتى ذهبت ثم انهك في مراجعة الجرائد
الصباحية والمسائية على السواء . لم يكن فيها جديد بالنسبة
اليه ولكن ثمة اهتمام بالجريمة والمجرم فاق ما كان يتوقعه
وبخاصة ما نشر فى جريدة الزهرة ، جريدة رءوف علوان .
كثبت الجريدة فى اسهاب مثير عن تاريخه فى اللصوصية ،
وسلسلة المغامرات التى كشفت عنها محاكمته ، وقصور الأغنياء
التي سطا عليها ، وعن شخصيته ، وجنونه الخفى ، وجرأته
الاجرامية التى انتهت الى سفك الدماء . يا للعناوين الكبيرة
السوداء . آلاف وآلاف يناقشون الساعة جرائمه ويتندرون
بخيانة نبوية له ويتراهنون على مصيره . انه محور الأخبار
ورجل الساعة وقلبه ينقبض لذلك خوفا وزهوا . الاتفعال يكاد

يمزق عروقه وعشرات الأفكار تتزاحم في رأسه في اللحظة
الواحدة وتيار مثل تيار الخمر يغمر خياله فيؤمن بأنه سيتمخض
عن أمر خطير لا يقل شأنًا عن الخلق أو النصر ، فيود لو يتصل
بالناس ليعرب لهم عما يهز صدره في الصمت والوحدة ، وليؤكد
لهم بأنه سيتنصر ولو بعد الموت . اله وحيد حيال الجميع
ولكنهم لا يعلمون ، لم يفقهوا بعد حديث الصمت والوحدة ،
ولا يفتنون الى أنهم أيضا لهم حديث صمت ووحدة ، والمرأة
التي تعكس صورهم باهتة مضللة فيتوهمون أنهم يرون قوما
غرباء . وثبتت عيناه على صورة سناء في دهشة وتأثر . وجرى
بصره على الصور جميعا ، صورته الوحشية وصورة نبوية التي
بدت كامرأة ساقطة ، ثم عاد الى سناء البتسمة . أجل انها
تبتسم ، لأنها لا تراه ولأنها لا تدري شيئا . وتفحصها بكل قوة
ورغبة فدهمه شعور بأنه عبث وأن الليل خارج النافذة يتنفس
حزنا أصيلا . وتعنى في يأسه لو يستطيع الهرب بها الى مكان
لا يعرفه أحد . وأن يراها ولو كآخر طلب له في الدنيا قبل
الشنق . . وقام الى الكنبه الأخرى ليلتقط المقص من بين
قصاصات القماش المكومة ثم عاد ليقطع الصورة بعناية من
الجريدة . ولما خرجت نور من الحمام كانت نفسه قد هدأت نوعا
ما ونادته من حجرة النوم فمضى اليها وهو يعجب كيف أنها
حملت اليه جميع الأبناء وهي لا تدري عنها شيئا . وتجلى
كرمها في المائدة التي أعدتها فسال لعابه شوقا الى الطعام

والشراب . وجلس الى جانبها على كنبه مواجهة للفراش أمام الحوان الخافل ، ولرضاه ربت شعرها المبتل وهو يقول على سبيل التحية :

— أنت امرأة ولا كل النساء ..

وعصبت شعرها بمنديل أحمر ، وراحت تملا الأكواب ، مبتسمة طوال الوقت لقوله ، مبدية عن لونها الأسمر الباهت بلا زواق ، منتعشة بالحمام كطعام متواضع لكنه طازج ، مطمئنة في جلستها معتزة بامتلاكه ولو الى حين ، فارتاح الى ذلك كنه دون حماس . وحذجته بنظرة ارتياب وقالت :

— أنت تقول هذا ، أكاد أصدق أحيانا أن الرحمة قد

تعرف قلوب رجال البوليس قبل أن تعرف قلبك ..

— صدقيني أنا سعيد بك ..

— حقا ؟

— نعم ، رقة قلبك لا يمكن أن تقاوم .

— ألم أكن كذلك في الزمان الأول ؟

هيهات أن ينسينا انتصار سهل هزيمة دامية . وقال :

— كنت وقتذاك بلا قلب ..

— والآن ؟

فتناول كوبه قائلا :

— لنشرب ولنبتهج ..

وأقبلا على الطعام والشراب بشهوة صادقة ، حتى سأله :

- كيف قضيت وقتك ؟
- فأجاب وهو يغمس ريشة في الطحينة :
- بين الظلمة والقبور ، أليس لك أموات هنا ؟
- أمواتي في قبور البلينا ، رحمة الله على الجميع ..
- وصمنا فوضحت أصوات التمطق واحتكاك الأكواب
وملقتة الصينية . وعاد سعيد يقول :
- سأطلب منك أن تشتري لى قماشا يصلح لبدلة ضابط ..
- ضابط ؟
- ألا تدرين أننى تعلمت الحياطة فى السجن ؟
- فتساءلت بنظرة قلقة :
- ولكن له ؟
- جاء دورى فى الجهادية !
- ألا تفهم أنى لا أريد أن أفقدك مرة أخرى ؟
- فقال بثقة غريبة :
- لا تخافى على لولا الغدر ما تمكن البوليس منى أبدا .
- تنهدت فى امتعاض فراح يقول من فهم مكتظ :
- أنت نفسك ألسن عرضة للخطر ؟
- ثم وهو يبتسم :
- كأن يهاجمك قاطع طريق فى الصحراء مثلا ؟
- وضحكا معا ، ثم مالت نحوه فقبلت شفثيه اللزجتين
يشفتين لزجتين وقالت :

— الحق أننا لكي نعيش يجب ألا نخاف شيئاً ..

فتساءل وهو يوميء الى النافذة بذقنه :

— حتى الموت ؟

— أعوذ بالله ..

ثم باستهانة :

— وحتى هذا أنساه عندنا يجمعنى الزمان بمن أحب ..

أعجب بحرارة قلبها وقوة اصراره ، ولفتوره شعر نعوها
بالرثاء والاحترام والامتنان .

وكانت ثمة فراشة تعاقق المصباح العارى فى تلك الساعة

من الليل ..

الفصل الحادي عشر



لا يمر يوم دون أن تستقبل القرافة ضيوفا جددا . وكان لهم
يبق لك من غاية الا أن تقبع وراء الشيش لترى الموت في نشاطه
الذائب . والمشيعون أحق بالثناء ، يذهبون في جموع باكية ،
ثم يعودون وهم يجففون الدموع ويتحادثون . وقوة أقوى من
الموت نفسه هي التي تمنعهم بالبقاء . هكذا دفن الذاهبون من

أهلك . عم مهران الكهل الطيب بواب عمارة الطلبة . العمل
والفطنة والأمانة . وقد اشتركت معه في الخدمة منذ الطفولة .
ورغم البساطة والفقر كانت الأسرة تفوز في ختام يومها بجلسة
هنية في الحجرة الأرضية بحوش العمارة ، الرجل وامرأته
يتحادثان والطفل يلعب . ولايمانه بالله اعتنق الرضى ، وكان
الطلبة يحترمونه . ونزهته الوجيدة كانت في الحج الى بيت
الشيخ على الجنيدى ، وعن طريقه عرفت أنت بيت الشيخ .
يا سعيد تعال معي ، سأدلك على رياضة هي خير من اللعب في
الحقل ، ستذوق لذة العيش في جو البركة ، بهذا يطمئن قلبك
وطمأنينة القلب هي خير زاد في الدنيا . وتلقاك الشيخ بنظرة
عامرة بالحنان فأعجبت أيما اعجاب بلحيته البيضاء ، وقال يخاطب
أباك « هذا ابنك الذى حدثتني عنه ، النجابة في عينيه ، قلبه
أبيض كقلبك ، وستجده ان شاء الله من الطيبين » . والحق أنك
أحببت الشيخ على الجنيدى جدا . فتننتك وضاءة وجهه واشعاع
المحبة المنبثق من عينيه . كذلك أعجبتك الأنعام والأفاشيد
فلعبت بأوتار قلبك حتى قبل أن يهذهبه الحب . وقال له عم
مهران يوما « علم هذا الغلام ماذا يجب عليه أن يفعل » فأجاب
الشيخ وهو يخنو عليك بنظرة « نحن نتعلم من المهد الى
اللحد ، ولكن يا سعيد ابدأ بأن تحاسب نفسك ، وليكن في كل
فعل يصدر عنك خير لانسان » ! واتبعت قوله على قدر
استطاعتك ولكنك لم تحققه على أكمل وجه الا حين احترفت

البصوصية ! . وتتابعتم أيام كالأحلام ثم اختفى عم مهرا
 الطيب . اختفى الرجل على نحو لم يفهمه الغلام ، وبدا الشيخ
 على الجنيدى نفسه عاجزا أمام اللغز . « يا بؤسك .. يا بؤسنا .
 مات أبوك » هكذا صاحت أمك وهى تصوت وأنت تهز رأسك
 وتدعك عينيك لتفريق من النوم بعد أن أيقظك صراخها فى
 الحجرة الأرضية بعمارة الطلبة . وبكيت فزعا لأنه لم يكن فى
 وسعك أن تفعل شيئا . ولكن تجلت فى تلك الليلة شهامة رءوف
 علوان الطالب بكلية الحقوق . كان شهما فى جميع الأحوال ،
 وكنت تحبه كما تحب الشيخ على الجنيدى وأكثر ، وهو الذى
 سمى فيما بعد الى أن تحل مكان أيبك فى خدمة العمارة ، أو
 أن تحل أنت وأمك فى مكان أيبك وهو الأصديق ، فنهض
 بالمسئولية فى سن مبكرة . ثم اختفت أمى . وكدت تهلك بسبب
 مرضها كما لا بد أن يذكر رءوف علوان . ويوم النزيف الذى
 لا ينسى ، يوم طرت بها الى أقرب مستشفى . مستشفى صابر
 التى تقوم كالقلعة وسط حديقة غناء . وجدت نفسك أنت
 وأمك فى قاعة استقبال عند المدخل فخيمة بدرجة لم تجرك فى
 خيال ، وبدا المكان كله وكأنما يأمرك بالابتعاد ولكنك كنت فى
 ميسس الحاجة الى اسعاف ، اسعاف سريع . ودلوه على الطبيب
 الشهير وهو خارج من غرفة فجرى اليه بجلبابه وصنذله صائحا
 « أمى .. الدم .. » فتفحصه الرجل بعينين زجاجيتين مستنكرا
 ومد بصره الى حيث استلقت الأم على مقعد وثير بشوب

كالسحام . وثمة ممرضة أجنبية كانت تراقب ما يجرى عن كثب
فبإزاء ذلك اكتفى بالاختفاء صامتا . ورطنت الممرضة بلغة لم
يفهمها ولكنه شعر بأنها تشاركه بعض مأساته . وغضب غضبة
رجل رغم حداثة سنه . صاح محتجا لاعنا . ورمى بمقعد الى
الأرض فأحدث دويا وتطايرت قشرة مسنده . وجاء خدم
كثيرون ، وما لبث أن وجد نفسه وأمه وحيدين في الطريق
المسقوف بالأغصان . وعقب شهر من الحادث ماتت الأم في
قصر العيني . وطيلة احتضارها ظلت قابضة على يدك وتأبى أن
تحول عنك عينيها . غير أنك في غضون شهر المرض سرقت ،
لأول مرة ، سرقت طالبا ريفيا من نزلاء عمارة الطلبة ، واتهمك
الطالب دون تحقيق وانهال عليك ضربا حتى جاء رءوف علوان
فخلصك من قبضته ، وسوى المسألة بلا مضاعفات . كنت
انسانا حقا يا رءوف وفضلا عن ذلك كنت أستاذى أيضا . وحين
خلا إليك قال لك بهدوء : « لا تخف ، الحق انى أعتبر هذه
السرقة عملا مشروعاً ! » . ولكنه استدرك محذرا : « ولكنك
ستجد البوليس لك بالمرصاد » . وقال لك أيضا ساخرا : « ولن
يتسامح القاضى معك مهما تكن بواعثك مقنعة فهو أيضا يدافع
عن نفسه » . ثم تساءل بالسخرية نفسها : « أليس عدلا أن ما
يؤخذ بالسرقة فبالسرقة يجب أن يسترد ؟ » . ثم هتف غاضبا :
« انى أتعلم بعييدا عن أهلى وأكابد كل يوم عذابا وجوعا
وحرمانا » . أين ذهبت تلك الحكم يا رءوف ؟ .. لعلها ماتت

كأبى وأمى وأمانة زوجتى . ولم يكن بد من أن تهجر عمارة
الطلبة سعياً وراء الرزق فى مكان آخر . وانتظرت عند النخلة
الوحيدة فى نهاية الحقل حتى قدمت نبوية فوثبت نحوها وقلت
لها : لا تخافى ، يجب أن أكلمك ، أنا ذاهب ، سأجد عملاً أوفر
ربحاً ، وأنا أحبك ، لا تنسينى أبداً ، أنا أحبك وسأحبك دائماً
وسوف أثبت لك أنى قادر على اسعادك وعلى فتح بيت محترم
لك . وفى تلك الأيام كانت الأحزان تنسى والجروح تلتئم والأمل
يحصد الصعاب ، فيا أيتها القبور الغارقة فى الظلمة لا تسخرى
من ذكرياتى ! .

ونفض من استلقائه فجلس على الكنبه فى الظلام وخاطب
رءوف علوان كأنه يراه أمامه قائلاً فى سخرية :

— لو قبلت أن أعمل محرراً فى جريدتك يا وغد لنشرت
فيها ذكرياتنا المشتركة ولحسفت نورك الكاذب ..

ثم تساءل بصوت مسموع :

— الام أطيق أن أبقى فى الظلام حتى تعود نور قبيل
الفجر ؟

واستولت عليه بغته رغبة لا تقاوم فى أن يغادر البيت للقيام
بجولة فى الليل . وانهارت مقاومته كما ينهار بناء آيل للسقوط
فى ثوان . وفى دقائق كان يغادر البيت فى حذر ، فاتجه نحو
طريق المصانع ، ومنه مال نحو الحلاء . وازداد بمغادرة المخبأ
وعيا بأحاساس المطارد . فشارك القران والثعابين مشاعرها

حين تتسلل . وحيد في الظلمة ، تتربص به المدينة التي تلوح
أضواؤها في الأفق ، ويتجرع وحدته حتى الشمالة ، وجلس الى
جانب طرزان على أريكته ولم يكن بداخل القهوة الا رجل
واحد من مهربي السلاح وصبي القهوة على حين ضج سفع
الهضبة بالسمر . وسرعان ما جاءه صبي القهوة بالشاي ، ثم
مال طرزان نحوه هامسا :

— لا تقم في مكان واحد أكثر من ليلة ..
وقال المهرب :

— اهرب الى الصعيد ..
فتساءل سعيد :

— لا أحد لى فى الصعيد ..
فعاد المهرب يقول :

— كثيرون تحدثوا عنك أمامى باعجاب ..
فتساءل طرزان بحنق :

— والبوليس هل يعجب به أيضا ؟

فضحك المهرب حتى اهتز جسمه هزة غريبة كأنه يمتطى
جملا مسرعا ، ثم قال :

— البوليس لا يعجبه العجب !
فتتمتم سعيد :

— ولا الصيام فى رجب ..
فقال صبي القهوة بحماس :

— أى ضرر فى سرقة الأغنياء؟

فابتسم سعيد فى ارتياح كأنه يتلقى تحية فى حفل تكريم
ثم قال :

— الجرائد لسانها أطول من جبل المشنقة ، وماذا ينفعك
حب الناس اذا أبغضك البوليس؟

ونهض طرزان فجأة فاندفع نحو النافذة وأطل منها ملتفتا
بينة ويسرة ، ثم عاد وهو يقول باهتمام :

— خيل الى أنى رأيت وجهها ينظر الينا

فالتمعت عينا سعيد ، وردد نظريه بين النافذة والباب ،
وخرج الصبى مستطلعا ، على حين قال المهرب :

— أنت ترى دائما أشياء لا وجود لها .

فهتف به طرزان :

— اسكت ، أنت تظن أن جبل المشنقة لهو ولعب ا

وغادر سعيد القهوة بيد قابضة على المسدس فى جيبه .

ومضى فى الخلاء وهو يتلفت ويتنصت فى حذر وتصميم .

وتضاعف احساسه بالمطاردة والوحدة والقلق ، وأدرك أنه

— لا يمكن أن يستهين بكتلة الأعداء المفعمة شهوة وخوفا والتي

لن يرتاح لها بال حتى تراه جثة هامدة . وعندما اقترب من

البيت بشارع نجم الدين رأى النور فى نافذة نور فداخله أول

شعور بالراحة منذ غادر القهوة . ووجدها راقدة فهمم بمداعبتها

ولكنه تبين في وجهها اعياء صارخا ، واحمرارا في العينين
لا يكون الا لعله . وجلس عند قدميها وهو يسأل :

— مالك يا نور ؟

فقالت بصوت ضعيف جدا :

— ميتة ا ، تقايات حتى مت ..

— الخمر ؟ !

اغرورقت عيناها وهي تقول :

— طول عمري وأنا أشرب !

وكان يرى دمعا لأول مرة فتأثر وهو يسأل :

— اذن ما السبب ؟

— ضربوني !

— البوليس ؟

— شبان لعلهم طلبه وأنا اطالبهم بالحساب ...

انصرف جانب فيه في رثاء وتمتم :

— اغسلى وجهك واشربى قليلا من الماء ..

— فيما بعد ، أنا تعبانة جدا ..

فتتمتم غاضبا :

— الكلاب !

وربت ساقيها اعرابا عن رثائه فقالت وهي تشير الى لفة

على الكنبه الأخرى :

— قماش البدلة !

فرقت يده حنانا وامتنانا ، وعادت هي تقول كالمعتادة :

— لن أروق في عينيك هذه الليلة ..

— لا عليك ، اغسلى وجهك ثم نامى ..

وفصل بينهما الصمت ، ونبح في مشارف القرافة كلب ،
وهدت عن نور تنهدة كالبخار ، ثم ارتفع صوتها وهي تقول
في حزن بالغ :

— قالت أمامك مستقبل كالورد ..

فتساءل متعجبا :

— من ؟

— ضاربة الودع ، وقالت سيجيء الأمان والاطمئنان ..

فنظر الى سواد الليل المتراكم خارج النافذة ، واستطردن

هي تقول :

— متى يجيء ؟ .. الانتظار طال ولا فائدة ، ولي صديقة

أكبر منى بأعوام تقول وتعيد القول اننا نصير عظاما أو أسوأ

من ذلك فحتى الكلاب تعافنا ..

وخيل اليه أن الصوت المتكلم نافذ من قبر فامتلاً شجنا ولم

يجد ما يقوله . وقالت هي :

— ضاربة الودع متى تصدقين ؟ ، أين الأمان ؟ ، أريد

نومة مطمئنة وصحوة هنية وجلسة وديعة ، هل يتعذر ذلك على

رافع السماوات السبع !؟

كذلك أت حلمت بهذه الحياة ورغم ذلك مرت حياتك

وكلها تسلقُ مواسير وقفز من الأسطح ومطاردة في الظلام
ورصاصات طائشة تقتل الأبرياء . وقال لها واجما ..

— أنت في حاجة الى النوم ..

— أنا في حاجة الى الوعد ، وعد ضاربة الودع ، وسوف

يأتى ذلك اليوم ..

— حسن .

فقلت بحدّة :

— أنت تلاحظنى كأننى طفل ..

— أبدا ..

— سوف يأتى حقا ذلك اليوم ..

الفصل الثاني عشر

ارتدى بدلة الضابط على سبيل التجربة فحدجته نور
يدهشة ولكنها لم تلبث أن قالت في توسل :
— كن حكيما ، لم يعد في وسعى أن أفقدك ..
فأشار الى البدلة وهو يقول :
— عن حكمة صنعتها ..
وتنحصر صورته في المرأة بعناية ثم قال ساخرا :
— أظن من المناسب أن أقنع برتبة صاغ ..

ولكنها سمعت عن أسطوره في الليلة التالية مباشرة .
ورأت عديدا من صورته في مجلة أسبوعية مع صاحب من
صحابها العابرين . وانهارت أمامه في يأس قائلة :
— قتلت ! ، يا مصيبتى ! ، ألم أتوسل اليك ؟
فلاطفها بيده قائلا :
— حدث ذلك قبل أن نلتقى ..
فزاغ بصرها ، وقالت في شك ويأس :
— أنت لا تحبني ، أنا أعرف هذا ، ولكن كان من الممكن
أن نعيش معا حتى تحبني !

— هذه الفرصة موجودة ..

فقلت فى يأس أرهب :

— لكنك قتلت ، ما الفائدة ؟

فابتسم فى اطمئنان وثقة وقال :

— ما أسهل أن نهرب معا ..

— ماذا تنتظر ؟

— حتى تهدأ الزوبعة ..

فضربت الأرض بقدمها قائلة :

— سمعت أن الجنود يملأون مخارج القاهرة ، كأنك أول

قاتل .. !

الجرائد .. الحرب الخفية ! .. ولكنه قال فى هدوء مصطنع :

— سأهرب حين أقرر الهرب وسترين ..

وقبض على ضفيرتها كالغاضب وقال موبخا :

— ألا تعرفين من يكون سعيد مهراى ! ، الجرائد كلها

تحدث عنه وأنت لا تؤمنين به ، أصغى الى " ، سنعيش معا الى

الأبد ، وستصدق كلمة ضاربة الودع !

ومضى فى الليلة التالية الى قهوة طرزان ، هربا من الوحدة

وطلبا للجديد من الأبناء . وما كاد يظهر عند مدخل القهوة حتى

بادره طرزان فذهب به الى الخلاء بعيدا ثم قال معتذرا :

— لا تؤاخذنى ، حتى قهوتى لهم تعد بالمكان المأمون لك ..

فقال سعيد واجما وأن أخفى الظلام وجومه :

— ظننت الزوبعة قد هدأت ..

— انها تزداد كل يوم اشتعالا بسبب الجرائد ، اختف ،
ولكن لا تحاول الخروج من القاهرة الآن ..
فتساءل سعيد في حلق :

— ألا تجد الجرائد موضوعا غير سعيد مهران ؟

— انها تقص على الناس أبناء غزواتك الماضية حتى أثارت
عليك المحافظة ..

وهمم بالذهاب فقال له طرزان وهو يودعه :

— فلنتقابل بعيدا عن القهوة اذا شئت ..

وعاد الى مخبئه في بيت نور . الى الوحدة والظلمة
والانتظار . وهتف بغضب :

— أنت يا رءوف وراء كل ذلك ..

جميع الجرائد سكنت أو كادت الا جريدة الزهرة . مازالت
تنبش عن الماضي وتستفز البوليس . انها توشك أن تنادى
ببطولته سعيا وراء القضاء عليه . ولن يهدأ رءوف علوان حتى
يطوق عنقه بحبل المشنقة ، ومع القانون والحديد والنار .
وأمت هل لحياتك التالفة من معنى الا أن تقضى على أعدائك .
عليش سدرة مجهول المكان ورءوف علوان في قصر من حديد
ولكن ما معنى حياتك ان لهم تؤدب أعدائك ؟ . ولن تحول قوة
دون تأديب الكلاب . أجل لن تحول دون ذلك قوة . وبصوت
مسموع تساءل :

— رءوف علوان ، خبرنى كيف يغير الدهير الناس على هذا النحو البشع ؟ !

— الطالب الشائر . الثورة فى شكل طالب . وصوتك القوى يترامى الى عند قدمى أبى فى حوش العمارة قوة توقظ النفس عن طريق الأذن . عن الأمراء والباشوات تتكلم . وبقوة السحر استحال السادة لصوصا . وصورتك لا تنسى وأنت تمشى وسط أقرانك فى طريق المديرية بالجلابيب الفضفاضة وتمصون القصب . وصوتك يرتفع حتى يغطى الحقل وتسجد له النخلة تلك هى الروعة التى لم أجد لها نظيرا ولا عند الشيخ الجنيدي . هكذا كنت يا رءوف . وبفضلك وحدك ألحقنى أبى بالمدرسة وعند أحرار النجاح ضحكت ضحكة عظيمة ولوالدى قلت : « رأيت ؟ .. لم تكن تريد أن تعلمه ، انظر الى عينيه ، سيكون ممن يقوضون الأركان » . وعلمتنى حب الكتاب وناقشتنى كأنى نده لك . وكنت بين المستمعين لك عند النخلة التى بنت عند جذورها قصة حبي وكان الزمان ممن يستمعون لك الشعب .. السرقة .. النار المقدسة .. الثروة .. الجوع .. العدالة المذهلة . ويوم اعتقلت ارتفعت فى نظرى الى السماء . وارتفعت أكثر يوم حميتنى عند أول سرقة . ويوم رد حديثك عن السرقة الى كرامتى . ويوم قلت لى فى حزن : « سرقات فردية لا قيمة لها ، لا بد من تنظيم ! » . ولم أكف عن القراءة والسرقة بعد ذلك . وكنت ترشدنى الى الأسماء الجديدة بالسرقة . ووجدت

في السرقة مجدى وكرامتى . وأغدقت على أناس كان من بينهم
للأسف عيش سدره . وبصوت غاضب قال في الحجره المظلمه :

— أأنت حقا رءوف علوان صاحب القصر ! ، أنت الشعبان
الكامن وراء حملة الصحف ؟ ! تود أن تقتلنى كما كان
الآخرون . وكما تود أن تقتل ضميرك . وكما تود أن تقتل
الماضى . لكنى لن أموت قبل أن أقتلك . أنت الخائن الأول .
ما أعبث الحياة ان قتلت غدا جزاء قتل رجل لم أعرفه . فلكى
يكون للحياة معنى وللموت معنى يجب أن أقتلك . لتكن آخر
غضبه أطلقها على شر هذا العالم . وكل راقد فى القرافه تحت
النافذة يؤيدنى . ولأترك تفسير اللغز للشيخ على الجنيدى ..
وعند أذان الفجر سمع الباب وهو يفتح . وجاءت نور
حامله الشواء والشراب والجرائد ، وبدت مبسوطة شوية كأنما
نسيت أشجان الأمس وأحزان أمس الأول . وبحضورها اقتشع
الظلام فوثب قلبه المنهك ليعانق الدنيا بطعامها وشرابها
وأخبارها . وقبلته فقبلها بامتنان ، وبلا تكلف لأول مرة . ود
ألا تغيب عنه ، وهى القلب الذى يودعه الحب قبل الموت .
وفض سداد الزجاجه فى مجلسهما المعتاد فمألاً كوبا ثم صبها فى
جوفه ناراً . وسألته وهى ترنو الى وجهه المتعب :

— لم لم تنم ؟

وكان يتصفح الجرائد فلم يجب فمضت تقول باشفاق :

— الانتظار فى الظلام عذاب .

فسألها وهو يرمى بالجرائد جانبا :

— كيف الحال فى الخارج ؟

— كحاله فى كل يوم ..

وفضت عنها ثيابها الا قميصا شفافا فسطعت أنفه رائحة
بودرة ملبدة بالعرق ، ثم استطرقت :

— ويتحدث عنك ناس كالك عنتره ولكنهم لا يدرون
عذابنا ..

فقال ببساطة :

— أكثرية شعبنا لا تخاف اللصوص ولا تكرههم ..

وتواصلت خمس دقائق فى التهام الشواء ثم قال :

— ولكنهم بالقطرة يكرهون الكلاب ..

فقالت باسمه وهى تعلق أناملها :

— أنا لا أحب الكلاب ..

— لا أعنى هؤلاء ..

— نعم ، ولم يخل بيتى منها أبدا حتى شهدت موت آخر

واحدة وبكيت كثيرا فصمت ألا أعاشرها مرة أخرى ..

فقال ساخرا :

— ينبغى أن تتجنب الحب اذا تواعدنا بالتعب ..

— أنت لا تفهمنى ولا تحبنى ..

فقال برجاء :

— لا تكونى ظالمة ، ألا ترين أن الدنيا كلها ظالمة ؟ !



وأفرطت في الشراب حتى دار رأسها واعترفت له بأن اسمها
الحقيقى هو شلبية وقصت عليه نوادر من عهد البلينا . الطفولة
والمياه الراكدة والشباب والهرب . ثم قالت بخيلاء :

— وأبى كان عمدة ..

فقال ببساطة :

— كان خادم العمدة !

فقطبت ولكنه بادرها قائلاً :

— أنت التى قلت فى الزمان الأول ..

فضحكت كاشفة عن أسنان مغطاة بالبقدونس وقالت :

— أقلت ذلك حقا ؟

فقال بحدة :

— ولذلك انقلب رءوف علوان خائناً ..

فحدجته بنظرة انكار متسائلة :

— من رءوف علوان ؟

فقال بسخط :

— لا تكذبى ، ان من يعانى الظلمة والوحدة والانتظار

لا يطبق الكذب ..

الفصل الثالث عشر



عقب منتصف الليل اخترق سعيد الصحراء وفي الجانب
الغربي من السماء شيء من القمر . وعلى مبعده مائة متر من

هضبة لقهوة صفر ثلاثا وراح ينتظر . لم يكن بد من أن يضرب
ضربته أو يجن . وكان يأمل أن يجد عند طرزان الخير . وما
لبث أن جاء طرزان كموجة من الظلام فتعاقبا ثم سأله :

— هل من جديد ؟

فقال الرجل وهو يلهث بما يتناسب مع سمائه :

— أخيرا جاء واحد منهم ..

فتساءل سعيد بلهفة :

— من ؟

فشد على يده قائلا :

— المعلم بياظة وهو الآن في القهوة يعقد صفقة ..

— لم يضع الانتظار هباء ، ماذا تعرف عن طريقه ؟

— سيرجع من طريق الجبل ..

— تشكر يا معلم ..

وابتعد مسرعا نحو الشرق مهتديا بالضوء الوانى حتى
الغابة المحدقة بعيون المياه . وسار بحذاء ضلعها الجنوبي حتى
رأسها المدبب الغائص في الرمال عند بدء الطريق المنحدر نحو
الجبل . توارى وراء شجرة متربصا . وجرى هواء جاف منعش
فصدرت عن رقعة الغابة الصغيرة وشوشة ، وترامى الخلاء
كالغناء ، ويده قابضة على المسدس ، يفكر في الفرصة الممكنة ،
في الاقراض على عدوه غير المنتظر ، ثم في بلوغ الهدف ،

المضنى ، وأخيرا فى الهلاك كآخر مستقر . وقال بصوت لم
تسمعه الا الأشجار الثملة بالهواء :

— عيش سدره ثم رءوف علوان فى ليلة واحدة ، ثم ليكن
ما يكون ..

وترتب يصارع الانتظار ولكن لم يطل به الانتظار فما لبث
أن لاح شبح يسرع فى الظلام ، آتيا من ناحية الهضبة نحو
رأس الغابة . ولما لم يعد بينه وبين بدء الطريق الا متر اندفع
سعيد من مكمنه مصوبا مسدسه هاتفا :
— قف ..

وتسر الشبح كأنه تكهرب ، وحملق فى الرجل دون أن
ينبس بكلمة ، فقال سعيد :
— بياظة أنا أعرف أين كنت وماذا فعلت ومقدار ما تحصل
من تقود ..

فوضح تنفس الشبح كالفحيح وندت عن ذراعه حركة
خفيفة مترددة سرعان ما همدت ، وغمغم :
— فلوس العيال !

فلطمه على وجهه لطمة زادت الليل سوادا فى عينيه وقال
بنبرات منطلقة :

— ألم تعرفنى يا بياظة الكلب ؟ !
فهتف بياظة :

— من ؟ .. عرفت الصوت ولكنى لم أصدق .. سعيد
مهراڻ ؟ !

— لا تتحرك ، ستقتل عند أول حركة ..

— أنت تقتلنى ! ، لم ؟ ليس بيننا عداوة !

فمد سعيد يده الى صدره حتى عثر على الكيس المثقل ثم
انزعاه من مربطه بقوة وهو يقول :

— هذه واحدة !

فهمتف بياظة بجزع !

— هذا مالى ، ولست عدوا لك ..

— احرص ، لم آخذ كل ما أريد بعد ..

— بيننا زمالة يجب أن تحترم .

فحرك المسدس فى يده وقال :

— اذا أردت النجاة بحياتك فخبرنى أين يقسم عيش

سدره ؟

فقال الرجل بتوكيد :

— لا أعرف ولا أحد يعرف ..

فلطمه لطمه أخرى أشد من الأولى وصاح بغضب :

— سأقتلك ان لم تدلنى على مكانه ، ولن تسترد هودك

حتى أناكد من صدقك !

فقال الرجل بنبرة متألمة :

— لا أعرف ، أقسم لك أنى لا أعرف ..

— كذاب !

— أحلف لك بالطلاق ان شئت !

— هل ذاب كما يذوب الملح ؟

فقال بنبرة تستجدي تصديقه :

— لا أعرف ، ولا أحد يعرف ، انتقل من شقته عقب زيارتك

له خوفا من بطشك ، انتقل الى روض الفرج ..

— عنوانه ؟

— انتظر يا سعيد ، بعد قتل شعبان حسين سافر ومعه

أسرته دون أن يخبر أحدا عن وجهته ، كان مرتعبا وكانت المرأه

مرتعبة ، ولا يدرى أحد عنهما شيئا !

— بياظة !

— أحلف لك بالطلاق بالثلاثة !

فلطمه الثالثة فتأوه وصاح بصوت ممزق :

— لم تضربني يا سعيد ؟ ، ربنا يججمه حيث يكون ، أهو

أخي أو أبي حتى أموت بسببه ؟ .

وصدقه في النهاية على رغمه . ويئس من العثور على غريمه .

ولو لم تكن تطارده جريمة قتل لصبر وانتظر حتى تحين الفرصة

ولكن الرصاص الطائشة أصابت أعز أمائسه . واذا بياظة

يقول :

— أنت ظلمتني !

— فلم ينبس فاستطرد الرجل :

— وفلوسى ؟!

وتحسس الرجل خديه الملتهبين ثم قال :

— أنا لم أسىء اليك فلا يحق لك أن تغتصب مالى ، ولى

عليك حق الزمالة !

فقال باحتقار :

— كنت ضمن أعوانه ..

— كنت صديقه وشريكه ولا يعنى هذا أن أكون عدوك ،

ولا شأن لى بخيائته ..

انتهى الصراع ولم يبق الا التراجع . وقال سعيد بصراحة :

— انى فى حاجة الى تقود ..

فبادره بياظة :

— لك ما تشاء ..

قنع سعيد بعشرة جنيهاً . وذهب الرجل وهو لا يصدق

بالنجاهة . ووجد سعيد نفسه كما بدأ وحيدا فى الخلاء وقد تجلى

ضوء القمر بوضوح أكثر وارتفعت مناجاة الأشجار . يبدو أن

عليش سدره قد أفلت من مخالب التأديب . نجا بخيائته ليزيد

الجؤنة الآمنين واحدا . أما أنت يا رءوف فالأمل الباقي فى

ألا تضيع حياتى عبثا ..

الفصل الرابع عشر

رجع الى البيت ثم غادره ضابطا برتبة صاغ والساعة تدور في الواحدة . اتجه الى شارع العباسية متجنباً أضواء المصابيح متخذاً مشية طبيعية جداً بفضل قوة أعصابه . واستقل تاكسى الى جسر الجلاء ، ومر في طريقه بأفراد من الشرطة فلم يرتع لمنظرهم بطبيعة الحال . وذهب الى مرسى القوارب القريب من الجسر فاكتفى قارباً صغيراً لمدة ساعتين ومضى يجدف جنوباً صوب قصر رءوف علوان فى هواء رطيب وتحت سماء صافية مرصعة بالنجوم وتربيع القمر معلق فوق أشجار الشاطيء . وكان يشعر بفورة نشاط عجيب وبأن حدثاً متفجراً سينطلق عما قريب من صدره . أقنع نفسه بأن نجاة عليش سدره ليست هزيمة له ما دام سينزل عقابه برءوف علوان ، إذ أن رءوف هو رمز الحياة التى ينضوى تحتها عليش ونبوية وجميع الخونة فى الأرض . وقال لرءوف علوان وهو يجدف بقوة : جاء وقت الحساب ، ولو كان الحكم بيننا غير الشرطة لضمنت تأديبك أمام الناس جميعاً ، الناس معى عدا اللصوص الحقيقيين ، وذلك مايعزىنى عن الضياع الأبدى . أنا روحك التى ضحيت بها ولكن



ينقصنى التنظيم على حد تعبيرك ، وأنا أفهم اليوم كثيرا مما
أعلق على فهمه من كلماتك القديمة ، ومآساتى الحقيقية أنى رغم
تأييد الملايين أجدنى ملقى فى وحدة مظلمة بلا نصير ، ضياع
غير معقول ولن تزيل رصاصة عنه عدم معقوليته ولكنها
ستكون احتجاجا داميا مناسبا على أى حال ، كى يطمئن الأحياء
والأموات ولا يفقدون آخر أمل . ومال بالقرب نحو الشاطئ
فى قنطرة تواجه القصر على وجه التقريب . وهبط منه الى
الأرض ثم جذبه بقوة حتى صار مقدمه فوق السفح ، ثم ارتقى
المنحدر الى الكورنيش مكتسبا من بدلتة الرسمية ثقة
وطمأينة . لاح الطريق خاليا ولا أثر لمخبر حول القصر فانبعث
الارتياح فى نفسه ولم يخل فى الوقت نفسه من حنق . واكتنف
الظلام القصر عدا مصباح الباب فتأكد لديه أن صاحب
القصر لم يرجع بعد وان ذلك سيغفيه من اقتحام البيت ويذل
له أكثر من عقبة . وفى مشية طبيعية مضى الى الشارع الى يسار
القصر فقطعه حتى آخره ثم مال مع شارع الجيزة نحو الشارع
الآخر الى يمين القصر عائدا منه الى الكورنيش وهو يتفحص
المكان كله ببصر من حديد . ومضى نحو شجرة فلبد فيما يليها
من رقعة محجوبة عن مصباح الطريق وراح ينتظر . واستقرت
عيناه على القصر طيلة الوقت عدا لحظات كان يريجهما بالنظر الى
سطح الماء المعتم ، ودارت أفكاره أثناء ذلك حول خيانة رءوف
والخدعة التى حطمت حياته ، والضياع الذى يحدق به ، والموت

الذى يسد طريقه ، وكيف أن كل أولئك جعل من موت رءوف
أمرآ لا بد منه . وكان يتابع كل سيارة قادمة وهو يتوثب . وأخيرا
توقفت سيارة أمام باب القصر وراح البواب يفتح الباب على
مصراعيه . وأسرع سعيد نحو الشارع الى يسار القصر ، سار
ملاصقا للسور ، ثم توقف عند نقطة محاذية للسلامك حيث
سيغادر الرجل سيارته . وتهادت السيارة في مشى الحديقة حتى
وقفت أمام السلامك . وأضء المصباح فغمر النور المدخل كله .
أخرج سعيد مسدسه وصوبه نحو الهدف . وفتح باب
السيارة . نزل رءوف علوان . وصاح سعيد :

— رءوف !

انتبه الرجل الى مصدر الصوت فى دهشة فصاح سعيد :

— أنا سعيد مهراڻ .. خذ ..

غير أنه فى نفس الوقت انطلقت نحوه من الحديقة رصاصة
أصاب أزيها صميم أذنه . حدث ذلك قبيل أن يطلق مسدسه
فاضطرب اضطرابا مفاجئا وهو يطلق النار . وانحنى بسرعة
نيتفادى من الرصاص المتتابع . ولكنه رفع رأسه فى تصميم يائس
وحذر وسدد مسدسه مرة أخرى وأطلق رصاصة وأخرى فى
عجلة ولهوجة . وقع ذلك كله فى ثوان ثم انطلق يعدو بأقصى
سرعة نحو شاطيء النيل فوثب نحو القارب . ودفعه الى الماء ،
وفى الثانية التالية كان يجدف بكل قوته نحو الشاطيء الآخر .
دار شعوره حول نفسه كالدوامة ، وانطلقت قواه من أعمن

مكائنها مباشرة وبلا أدنى وعى ، وخيل إليه أن رصاصا ينطلق ، وأصواتا تتجمع ، وأن بعض جسمه يذوب . وكانت المسافة بين الشاطئين فى منطقة عبوره ضيقة فسرعان ما بلغ الشاطيء . ووثب إليه تاركا القارب للموج يفعل به ما يشاء . وصعد الى أرض الشارع بيد قابضة على المسدس فى جيبيه . ورغم ما شعر به من تشتت فقد سار على مهل ، وفى هدوء ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة . وتأكد لديه أن أقداما تتدافع نحو الشاطيء ، وأن أصواتا تستخدم وتعلو فوق الجسر ، واخترقت الجو الحامل صفارة مجنونة . وتوقع فى كل لحظة أن يلحق به مطارد . وتأهب للتمثيل بكافة احتمالاته أو لدخول المعركة الأخيرة . ومر به تاكسى قبل أن يقع لحادث فناداه ، واستقله ، وما كاد يتخذ مجلسه حتى شعر بالهم حاد ولكنه رغم ذلك شعر بنعمة النجاة . وتسلسل الى المسكن فى ظلام حالك . واستلقى على الكنبه ببدلته الرسمية . وعاوده الألم كاشفا هذه المرة عن مكانه فوق الركبة فامتدت يده اليه فاستشعر سائلا لزجا . أووه .. هل ارتطم بشيء ؟ ، رصاصة ؟ ، وراء السور أم وهو يجرى ؟ . وتحسس موضعه فرجح لديه أنه مجرد جرح سطحي ، ولو كان رصاصة فقد احتكت به ونم تنفذ فيه . وقام فخلع البداة فى الظلام وفتش عن جلبابه فوق الكنبه فارتداه . وذرع الحجره ليطنن على رجله . قديما أنت قطعت شارع محمد على جريا برصاصة مستقرة لساعتها فى ساقك . أنت قادر على فعل العجائب . وقد تفوز بالهرب أيضا .

أما الجرح فقليل من البن يضمده . ولكن هل قتل رءوف علوان ؟ . ومن الذى أطلق النار من الحديقة ؟ . حذار أن تكون أصبت ضعيفا بريئا آخر . ولكن لا بد أن رءوف علوان قد قتل فيدك لا تخطيء . كما شهدت بذلك الصحراء وراء الهضبة وسوف ترسل خطابا الى الصحف بعنوان « لماذا قتلت رءوف علوان » . عند ذلك تسترد الحياة معناها المفقود . فالرصاصه التى تقتل رءوف علوان تقتل فى الوقت نفسه العبيث . والدنيا بلا أخلاق ككون بلا جاذبية . ولست أطمع فى أكثر من أن أموت موتا له معنى .

وأقبلت نور فى غاية من الاعياء محملة بالطيبات ، وقبلته كعادتها وانبسطت أساريرها لتلقى بتحية لقاء ولكن بصرها جمد فجأة على البنطلون فنحّت اللفة على الكنبه وتناولته هاتفه :

— دم !

ولحظ ذلك لأول مرة فكشف عن رجله قائلا :

— جرح بسيط نتيجة ارتطام بباب التاكسى .

فصاحت :

— أنت خرجت مرتديا البدلة لسبب ، أنت لن تقف عند

حد ، وسوف أموت كمدأ ..

— قليل من البن يشفى هذا الجرح قبل طلوع الصبح ..

— طلوع الروح ! ، أنت تقتلنى قتلا ، آه .. متى يزول

الكابوس ؟ !

ونشطت فى نرفزة فكبست الجرح بالبن وعصبتة بقصاصة

من بقايا الفستان الذى كانت تخطيه ، وظلت طيلة الوقت تندب
حظها . وقال لها :

— خذى دشافهَذَا أنفع لك ..

فذهبت وهى تقول :

— أنت لا تدرى النافع من الضار ..

ولما رجعت الى مجلس حجرة النوم كان قد شرب ثلث
الزجاجة فعاوده شىء من الاستقرار المريح ، واستقبلها قائلاً :

— اشربى ، أنا هنا فى مكان آمن مطمئن لن تمتد اليه عين

البوليس ..

فقالت فى نكد وهى تمشط شعرها المبتل :

— أنا تعيسة جدا ..

فتساءل وهو يواصل الشراب :

— من يستطيع أن يحكم عن الغد ؟

— عملنا !

— لا شىء ، لا شىء مؤكد الا قربك الذى لا غنى عنه .

— أنت تقول هذا !

— وأكثر ، أنت جنة وسط الرصاص الذى يجد ورائى ..

وتنهدت تنهدة طويلة كمناجاة فى الليل فقال :

— أنت طيبة جدا ، أحب أن أعترف بذلك ..

— أنا تعيسة ، لا أود الا أن تبقى فى السلامة ..

— ما تزال أمامنا فرصة ..

— الهرب ! ، فكر فى الهرب ..

— نعم .. ولكن لنتنظر حتى يغمض الكلب عينيه ..
فقلت بحدة :

— ولكنك تخرج بلا مبالاة ، تود أن تقتل زوجتك والرجل
الآخر ، ولن تقتلها ولكنك ستلقى بنفسك في الهلاك ..
— ماذا تسمعين في الخارج ؟

— سائق تاكسى ، دافع عنك بحرارة ولكنه قال انك قتلت
رجلا ضعيفا بريئا ..

وتفخ في غضب ، ودارى ألمه الطافح بشربة مليئة ، وأشار
لها لتشرب فرفعت الكوب الى فيها ، وتساءل :
— وماذا سمعت أيضا ؟

— فى العوامة التى سهرت فيها قال أحدهم عنك انك منبه
مسلم فى الملل الراكد ..

— وأنت ماذا قلت ؟

فلحظته بعتاب وقالت :

— ولا كلمة ، أنا أحافظ عليك ، أما أنت فلا تحافظ على
نفسك ، وأنت لا تحبنى ولكنك أعز على من النفس والحياة ،
وطول عمرى لم أعرف السعادة الا بين يديك ولكنك تفضل
الهلاك على حبى ..

وبكت والكوب فى يدها فطوقها بذراعه وهمس فى أذنها :

— ستجديننى عند وعدى ، سنهرب ونعيش معا انى

الأبد ..

الفصل الخامس عشر



يا للعناوين الضخمة والصور المثيرة كأنه الحدث الأكبر الذي تتناقله الصحف . وسألوا رءوف علوان فأجاب أن سميد مهران كان خادما في عمارة الطلبة على عهد اقامته بها ، وانه كان يعطف عليه كثيرا ، وانه زاره بعد خروجه من السجن مستجديا فأعطاه مالا ليبدأ حياة جديدة ولكنه حاول سرقة بيته في الليلة

ففسها فقبض عليه وعنفه ولكنه أطلق سراحه رحمة به ، وجاء
أخيرا ليقتله ! . واتهمته الصحف بالجنون . جنون العظمة
والدم . لقد أفقدته خيانة زوجته عقله فهو يطلق النار بلا وعى .
ولم يصب رءوف علوان ولكن البواب المسكين سقط . برىء
ضعيف آخر .

وصاح سعيد وهو يقرأ الخبر :

— اللعنة !

الدوى يقرع بقوة صاروخية . وثمة مكافأة ضخمة لمن
يرشد إليه . ومقالات تحذر الشعب من العطف عليه . أنت أهم
ما فى الحياة اليوم . وستظل كذلك حتى تزهب روحك . انك
مثار الخوف والاعجاب كالظواهر الطبيعية الحارقة . وسيدين
لك بالسرور كل من خنقه الملل . أما مسدسك فالظاهر انه
لا يقتل الا الأبرياء وستكون أنت آخر ضحية له . وتساءل
بصوت جاف :

— أهذا أهو الجنون ؟ !

كنت دائما تطمح الى زلزلة الكون من أساسه . حتى وأنت
مجرد بهلوان . وغزواتك الظافرة للقصور كانت خمرا يسكر بها
رأسك النخور . وكلمات رءوف التى آمنت بها وكفر بها قائلها
أطاحت برأسك حتى الموت .

ولبت وحيدا فى الليل ، وكان فى الزجاجة خمر فشربها حتى
آخر نقطة . ووقف فى الظلام يطوقه صمت المقابر ودار رأسه

رويدا . وشعر بأنه يتغلب على الصعاب ويستهن بالموت ويطرب
لأنعام خفية . وقال مخاطبا الظلام :

— رصاصة طائشة جعلت منى رجل الساعة ! ..

ومضى الى الشيش فنظر من خلاله الى القرافة وقد رقدت
القبور تحت ضوء القمر وقال :

— يا حضرات المستشارين اسمعوا لى جيدا فقد قررت
الدفاع عن نفسى بنفسى ..

ورجع الى وسط الحجرة ثم نزع عنه جلبابه لشدة الحرارة
فى الحجرة ولارتفاع الحرارة فى جوفه من فعل الخمر . واختلج
جرحه بالألم تحت العصابة فأمن بأنه آخذ فى الالتئام . وحمق
فى الظلام قائلا :

— لست كغيرى ممن وقفوا قبلى فى هذا القفص ، اذ يجب
أن يكون للثقافة عندكم اعتبار خاص ، والواقع أنه لا فرق
بينى وبينكم الا أنى داخل القفص وأنتم خارجه ، وهو فرق
عرضى لا أهمية له البتة ، أما المضحك حقا فهو أن أستاذى
الخطير ليس الا وعدا خائنا ، ويحق لكم العجب ، ولكن يحدث
أن يكون السلك الموصل للكهرباء قدرا ملطخا بافرازات
الذباب ..

ومال نحو الكنبه فاستلقى عليها . وترامى اليه من بعيد
نباح كلب . ولكن كيف تظمن على قضائك وبينك وبينهم
خصومة شخصية لا شأن لها بالصالح العام ؟ ! . انهم أقرباء

للوغد ويفصل بينك وبينهم قرن من الزمان . وأنت تطالب
بشهادة الضحية . وتؤكد أن الخيانة باتت مؤامرة صامتة ..

— أنا لم أقتل خادم رءوف علوان ، كيف أقتل رجلا لا أعرفه
ولا يعرفنى ؟ ، ان خادم رءوف علوان قتل لأنه بكل بساطة
خادم رءوف علوان ، وأمس زارتنى روحه فتواريت خجلا
ولكنه قال لى ملايين هم الذين يقتلون خطأ وبلا سبب ..

ستتألق هذه الكلمات وتتوج بالبراءة . أنت واثق مما
تقول . وفضلا عن ذلك فهم يؤمنون فى قرارة أنفسهم بأن
مهنتك مشروعة ، مهنة السادة فى كل زمان ومكان ، وأن القيم
الزائفة حقا فهى التى تقدر حياتك بالملايين وموتك بألف جنيه
وقاضى اليسار يغمز لك بعينه فأبشر .

— سأطلب دائما رأس رءوف علوان ولو كآخر طلب من
عشماوى ، حتى قبل رؤية ابنتى ، وأنا مضطر الى ألا أعد العمر
بأيام لأن المطارّد يقتات بزمنه افعالات تنهال عليه فى وحدته
كالمطر ..

لن يكون الحكم أقسى من جفول سناء . قتلتك قبل المشنقة
وعطف الملايين عليك عطف صامت عاجز كأمانى الموتى . ألا
يغفرون للمسدس خطأه وهو ربّتهم الأعلى ؟ .

— ان من يقتلنى انما يقتل الملايين ، أنا الحلم والأمل وفدية
الجبنة ، وأنا المشل والعزاء والدمع الذى يفضح صاحبه ،

والقول بأننى مجنون ينبغي أن يشمل كافة العاطفين فادرسوا أسباب هذه الظاهرة الجنونية واحكموا بما شئتم ..
واشتد به الدوار ففضى بأنه عظيم بكل معنى الكلمة عظمة هائلة ولكنها مجللة بالسواد عشيرة للمقابر ولكن عزتها ستبقى بعد الموت . وجنونها تباركه القوة السارية في جذور النبات وخلايا الحيوان وقلب الانسان . وسرقه النوم فلم يدر كيف سرقه ، ولم يفتن الى أنه نام حقا الا حين استيقظ على ضوء يغمر الحجرة . وفتح عينيه فرأى نور واقفة تنظر اليه من عينين ميتين وقد تدلت شفتها السفلى واحدودب ظهرها في قنوط ، بدت مثالا صادقا لليأس والضياع . أدرك ما وراء ذلك في ثانية ، لقد سمعت عن الجريمة الأخيرة فانكمت أنفاسها .
— أنت أقسى مما أتصور ، لا أفهمك . ولكن بالله اقتلنى رحمة بى ..

وجلس على الكنبه دون أن ينبس .

— أنت تفكر في القتل لا في الهرب ، وسوف تقتل ، هل تظن أنك ستهزم الحكومة بجنودها الذين يملأون الشوارع ؟
— اجلسى وانتحدث في هدوء :

— من أين لى الهدوء ؟ ، وفيم نتحدث ؟ ، انتهى كل شىء ، اقتلنى رحمة بى ..

فقال بهدوء رقيق :

— لا مستك سوء أبدا ..

— لن أصدق كلمة مسا تقول ، لماذا تقتل البوابين ؟

فهتف بحدة :

— لم أقصد مسه بسوء !

— والآخر ؟ ، من هو رءوف علوان ؟ ، ماذا بينك وبينه ؟ ،

أبانت له علاقة بزوجتك ؟

فضحك ضحكة جافة كالسعلة :

— فكرة مضحكة ! ، ثمة أسباب أخرى ، انه خائن أيضا .

ولكنه من نوع آخر ، لا أستطيع أن أفهمك كل شيء ..

فقلت بغضب :

— ولكنك تستطيع أن تعذبنى حتى الموت ..

— قلت اجلسى لتحدث فى هدوء ..

— أنت لا زلت تحب زوجتك ، تلك الخائنة ، ولكنك

تعذبنى أنا ..

فقال متوجعا :

— نور ، لا تزيدنى عذابا ، أنا فى غاية من النكد ..

وصمتت متأثرة بتوجهه الذى لم تره من قبل . ثم قالت

بحزن شديد :

— انى أشعر بأن أعز ما فى حياتى يختصر ..

— وهم وخوف ، أما المغامر مثلى فلا يعترف بالشدائد ،

سأذكرك بذلك ..

فتساءلت بلهجة ندب :

— متى ؟

فقال مدعياً ثقة لا حد لها :

— أقرب مما تتصورين !

ومال فحوها فجذبها من يدها. اليه ، ولصق جبينها بجبينه
حتى امتلأ أنفه برائحة الخمر والعرق . ولم يتقزز ، بل قبلها
بحنان صادق ..

الفصل السادس عشر

اقرب الفجر ونور لم تعد . أنهكه الانتظار والفكر حتى
شعر بضربات السهاد تنهال على جمجمته . واذا بالظلمة الحارة
تنحسر عن تساؤل أحمر : هل يمكن أن تلعب المكافأة الموعودة
بقلب نور ؟ . حقا تلوث دمه بسوء الظن لآخر قطرة . والخيانة
في عينيه أضحت كرائحة العبار في اليوم الخماسيني . وكم ظن
في الماضي أن نبوية ملك يديه ، ولعلها في الواقع لم تحبه قط
حتى على عهد النخلة الوحيدة في نهاية الحقل . ولكن رغم ذلك
كله فنور لن تخونه ، ولن تسلمه الى البوليس طمعا في مكافأة
فقد ضجرت من المعاملات وتقدم العمر وباتت تحن الى عاطفة
انسانية خالصة . ينبغي أن يندم على سوء ظنه ، ولكن متى
تعود نور ؟ . لقد اشتد بك الجوع والظما والانتظار . كحالك
يوم وقمت تحت النخلة تنتظر . تنتظر نبوية ونبوية لا تجيء
وجعلت تحوم حول بيت العجوز التركية وأنت تقضم أظافرك ،
وكدت من اليأس أن تطرق الباب في طيش جنوني . أى هزة فرح
كانت تسكر جوارحك عند بزوغ طلعتها ! . هزة شاملة متغلغلة
مطربة مسكرة تشدك من أطراف أصابعك الى السماء السابعة .
فيها الدمعة والضحكة والاندفاع والثقة والفرحة الجامحة . ولكن

لا تتذكر عهد النخلة بعد ما اتقضى وفصل بينك وبينه الدم والرصاص والجنون . انظر ماذا أنت صانع بمرارة الانتظار في هذه الظلمة الحارة القاتلة . يبدو أن نور لا تريد أن تعود ، لا تريد أن تنقذه من عذاب الوحدة والظلمة والجوع والظماً . ورغم كل شيء فقد نام وهو أياس ما يكون من الندم . ولما فتح عينيه رأى الشيش ينضح بنور النهار ووهج الحر يشتعل في الحجرة المغلقة . ووثب الى أرض الحجرة في انزعاج ثم انتقل الى حجرة النوم فوجدها كما تركتها المرأة أمس ، ودار بالشفقة ، كلا ، نور لم تعد . ترى أين باتت المرأة ؟ ، وماذا منعها عن العودة ؟ ، والام يقضى عليه بهذا السجن المنفرد ؟ . وقرصه الجوع رغم قلقه وأفكاره فذهب الى المطبخ فوجد في الصحاف كسرا من الخبز وفتات لحم عالقة بالعظام وبعضا من البقدونس فأتى عليها في نهم شديد وتمصص العظام ككلب . وتقضى النهار وهو يتساءل عن غيابها وهل تعود ، يجلس حينا ويتمشى حينا آخر . ولم يجد من تسلية الا في النظر من الشيش الى القرافة ، ومتابعة الجنازات ، وعد القبور دون جدوى . وجاء المساء ولم تعد . لا يمكن أن يقع هذا بلا سبب . أين نور ؟ مزقه القلق والضيق والجوع . نور في مأزق بلا ريب ، ولكن يجب أن تخلص من مأزقها ثم تعود والا فكيف تمضى به الحياة .

وغادر البيت عقب منتصف الليل دون أن يسمع همس

حذائه أحد . وقطع الخلاء نحو قهوة طرزان . وعند موقعه المعتاد صفر ثلاثا وانتظر حتى جاءه المعلم طرزان . وصافحه الرجل وهو يقول له :

— كن شديد الحذر ، لا يخلو شبر من مخبر ..

— أريد طعاما !

— يا خبر أبيض ! ، جوعان !

— نعم ، لا تعجب لشيء يا معلم !

— سأرسل الولد ليحضر لك الكباب ، ولكن من الخطر

حقا أن تخرج ..

— تعرضنا فيما مضى لأخطار أشد ، أنا وأنت ..

— كلا ، الهجمة الأخيرة قلبت عليك الدنيا ..

— طول عمرها وهي مقلوبة ..

— ولكن من النحس أن تهاجم رجلا خطير الشأن ..

وودعه وانصرف . وبعد ساعة جاءه الطعام فالتهمه بعنف .

وجلس فوق الرمال تحت قمر أوشك أن يكتمل . ونظر من

بعيد الى النور المنبثق من قهوة طرزان فوق الهضبة ، وتخيل

مجمع السمار والجالسين في الحجرة . حقا انه لا يجب الوحدة .

وهو بين الناس يتضخم كالعملاق ويمارس المودة والرياسة

والبطولة . وبغير ذلك لا يجد للحياة مذاقا . ولكن نور هل

عادت ، هل تعود ، هل يرجع اليها أو يرجع الى الوحدة

القائلة ؟ ! . وقام فنفض الغبار عن بنطلونه ، ومشى نحو الغابة



ليعود من الطريق الذى يدور حول مدفن الشهيد من ناحيته الجنوبية . وعند الموقع الذى انقض فيه على بياضة انشقت الأرض عن شبحين وثبا نحوه فجأة حتى أحاطا به من الجانبين . قال أحدهما بلهجة ريفية ممدنة :

— قف ..

وهتف الآخر :

— بطاقتك الشخصية !

وسلط الأول على وجهه نور بطارية فأحنى رأسه كأنه يحمى عينيه وصاح بعنف غير متوقع فى الوقت نفسه :

— من أنتما ؟ .. تكلمنا ..

دهش الرجلان للهجة الأمرة ولكنهما تبينا ملبسه على ضوء البطارية واذا بالأول يقول :

— لا مؤاخذة يا حضرة الضابط ، لم تبين شخصيتك فى ظل الغابة !

فصاح بعنف أشد :

— من أنتما ؟

هـ فقالا بعجلة ولهوجة :

— من قوة الوالىلى يا فندم .

ومع أن البطارية انطفأت الا أنه قرأ فى وجه الآخر شيئاً رابه . رآه يتمعن فيه بقوة . كأن شكاً داخله . وخشى أن يفلت الزمام منه فبقوة تصميم لا تعرف التردد وجه قبضتيه معا الى

بطنى الرجلين فترنحا . وقبل أن يتمالكا نفسيهما انهال عليهما
لكما فى مواطن الضعف كالفك وأعلى البطن حتى سقطا مغشيا
عليهما ، ثم انطلق فى طريقه بأقصى سرعة . ولم يتجه نحو شارع
نجم الدين حتى وقف عند منعطفه مليا ليتأكد من أن أحدا
لا يتبعه . ورجع الى البيت فوجده خاليا كما تركه ، ووجد
الوحشة والضيق والقلق فى انتظاره . وخلع الجاكتة وارتمى على
الكنبة فى الظلام . وتساءل بصوت مسموع كئيب :

— نور ، أين أنت ؟

محال أن تكون بخير . هل قبض البوليس عليها ؟ ، هل
اعتدى عليها بعض الأوغاد ؟ . هى ليست على أى حال بخير .
هو يؤمن بذلك بقلبه وغريزته . لن يرى نور مرة أخرى .
وخفته اليأس خنقا ، ودهمه حزن شديد الضراوة . لا لأنه
سيفقد عما قريب محبأه الآمن ولكن لأنه فقد قلبا وعظفا وأنسا
وتمثلت لعينيه فى الظلمة بابتسامتها ودعابتها وجبها وتعاستها
فانصر قلبه . ودلت حاله على أنها كانت أشد تغلغلا فى نفسه
مما تصور . وأنها كانت جزءا لا يصح أن يتجزأ من حياته
الممزقة المترنحة فوق الهاوية . وأغمض عينيه فى الظلام واعتوف
اعترافا صامتا بأنه يجبها ، وأنه لا يتردد فى بذل النفس
ليستردها سالمة . ونفخ غاضبا وهو يتساءل :

— هل تهتز شعرة فى الوجود لضياعها ؟

كلا . حتى نظرة الرثاء غير المجدية لن تحظى بها . امرأة بلا

نصير في خضم من الأمواج اللامبالية أو المعادية . وسناء
— كذلك — قد تجد نفسها يوما بلا قلب يهتم بها . وتقبض
قلبه في خوف وغضب فتناول مسدسه ثم سدده في الظلام كأنما
يحذر المجهول . وتأوه من الأعماق في يأس . وهكذا طال به
هذيان الصمت والظلام حتى صرعه النوم في آخر الليل .

وفتح عينيه في ضوء النهار وسرعان ما تنبه الى أنه استيقظ
على يد تطرق الباب . نهض منزعجا ، ثم سار على أطراف
أصابعه الى مدخل الشقة والطرق متواصل . وارتفع صوت
امرأة مناديا : « يا ست نور .. يا ست نور ! » من المرأة وماذا
تريد ؟ . ورجع الى الحجرة ثم عاد بمسدسه على سبيل الحيلة .
واذا بصوت رجل يقول : « لعلها خرجت » فقالت المرأة : « في
مثل هذا الوقت تكون في البيت ، ولم تتأخر من قبل في دفع
الايجار » . اذن فهي صاحبة البيت . وطرقت المرأة الباب طرقة
غاضبة ثم قالت : « اليوم الخامس من الشهر ولن أصبر أكثر من
ذلك ! » . وابتعدت هي والرجل وهما يتبادلان التعليق في
لهجة وعيد .

وآمن سعيد بأن الحوادث تطارده كالبوليس . لن تصبر
المرأة طويلا على الانتظار ، وسوف تفتحم الشقة بوسيلة أو
بأخرى ، وخير ما يفعل هو أن يغادر الشقة في أقرب فرصة
ممكنة ..

ولكن أين المفر ؟

الفصل السابع عشر



عادت صاحبة البيت الى طرق الباب عند العصر ثم عند المساء ، ورجعت آخر مرة وهى تقول : « لا لا يا ست نور ، لا بد لكل شىء من آخر » .

وغادر البيت متسللا عند منتصف الليل . وبالرغم من أنه فقد الثقة فى كل شىء الا أنه مشى مشية طبيعية جدا ومنتهلة

كأنما يتريض . وخيل إليه أكثر من مرة أن المارة والمتسكعين ليسوا إلا مخبرين فتوثب لدخول آخر معركة يائسة . ولم يشك في أن البوليس يحتل منطقة طرزان كلها بعد معركة أمس فمضى نحو طريق الجبل ، وكان الجوع ينهش بطنه ، ووجد نفسه يفكر في مسكن الشيخ على الجنيدى كسرفاً مؤقت حتى يتسع له مجال التفكير والمغامرة . وتسلسل إلى فناء البيت الصامت ، وعند ذلك فحسب تنبه إلى أنه نسي بدائه الرسمية — بدلة الضابط — في حجرة الجلوس ببيت نور فغضب لذلك أيما غضب ، ولكنه واصل سيره إلى حجرة الشيخ . ورأى الشيخ على ضوء المصباح متربعا في ركن المصلى غارقا في نجوى هامسة فذهب إلى جدار الحجرة حيث ترك كتبه وجلس في اعياء . واستمر الشيخ في نجواه فقال سعيد :

— مساء الخير يا مولاي ..

فرفع الشيخ يده إلى رأسه ردا على تحيته دون أن يقطع نجواه ، فقال سعيد :

— مولاي ، أنا جائع ..

فخيل إليه أنه قطع النجوى ورنا إليه من عينين غائبتين ثم أوماً بذقنه إلى خوان قريب فرأى سعيد فوقه تينا وخبزا فنهض إليه دون تردد ثم التهمه بنهم حتى أتى عليه ، ووقف ينظر إلى الشيخ بعينين تنطقان بعدم شبعه ، فسأله :

— أليس معك تقود ؟

— بلى ..

— اذهب واشتر شيئا تأكله .
فعاد الى مجلسه صامتا ، وجعل الشيخ يتأمله مليا ، ثم
سأله :

— متى يا ترى تستقر ؟
— ليس على سطح هذه الأرض ..
— لذلك فأنت جائع رغم تقودك ..
— ليكن ..
— أما أنا فكنت أردد شعرا عن الأحزان ولكن بقلب
مبتهج ...

— أنت شيخ سعيد ..
ثم بغضب :
— هرب الأوغاد ، كيف بعد ذلك أستقر ؟ !
— كم عددهم ؟
— ثلاثة ..
— طوبى للدنيا اذا اقتصر أوغادها على ثلاثة .
— هم كثيرون ولكن غرمائي منهم ثلاثة ..
— اذن لم يهرب أحد ..
— لست مسئولاً عن الدنيا ..
— أنت مسئول عن الدنيا والآخرة !
ونفخ لنفاد صبره فقال الشيخ :
— الصبر مقدس تقديس به الأشياء ..

- فقال سعيد بغم :
- بل المجرمون ينجون ويسقط الأبرياء ..
- فتساءل الشيخ وهو يتنهد :
- متى نظفر بسكون القلب تحت جريان الحكم ؟
- فأجاب سعيد :
- عندما يكون الحكم عادلا .
- هو عادل أبدا ..
- فحرك سعيد رأسه في غيظ مغمغما :
- هرب الأوغاد وأسفاه ..
- فابتسم الشيخ ولم ينبس ، فقال سعيد بنبرة جديدة يمهدها بها لتغيير مجرى الحديث :
- سأنام ووجهي الى الجدار ، لا أود أن يراني أحد مسن يزورونك ، انى ألقا اليك فاحفظنى ..
- فقال الشيخ برحمة :
- التوكل ترك الايواء الا الى الله ..
- فسأله باشفاق :
- هل تنخلى عنى ؟
- معاذ الله ..
- فتساءل في يأس :
- هل في وسعك بكل ما أوتيت من فضل أن تنفذنى ؟
- أنت تنقذ نفسك ان شئت ..
- فهمس سعيد لنفسه :

— أنا أقتل الآخرين ..

ثم سأله بصوت مرتفع :

— هل تستطيع أن تقيم ظل شيء معوج ؟

فقال الشيخ برقة :

— أنا لا أهتم بالظلال !

وساد الصمت فدبت الحياة خارج الكوة التي يسيل منها

القمر . ورتل الشيخ بصوت هامس « ان هي الا فتنتك »

وقال سعيد ان الشيخ سيجد دائما ما يقوله . وبيتك يا مولاي

غير مأمون وان تكن أنت الأمان نفسه . وعلى أن أهرب مهما

كلفنى الأمر . وأما أنت يا نور فلتحفظك الصدفة ان أعوزك

العدل والرحمة . ولكن كيف نسيت البدلة الرسمية ؟ . لففتها

مصمما على أخذها معك فكيف نسيتها في آخر لحظة ؟ . حقا

فقدت جميل مزاياك بالسهاد والوحدة والظلمة والتعلق . وقد

يجدون في البدلة أول خيط يوصل اليك . وقد تشمها الكلاب

فنتشر في جهات الأرض الأربع كي تكتمل المأساة التي يتسلى

بها قراء الصحف . واذا بالشيخ يقول فيما يشبه الأسى :

— سألتك أن ترفع وجهك الى السماء وها أنت تنذر بآنك

ستدفعه في الجدار !

فحدجه بحزن هاتفا :

— وحديش عن الأوغاد ألا تذكره ؟

فقال بنبرة دسمة :

— واذكر ربك اذا نسيت .

فغض بصره في كرب ثم ساءل نفسه كيف نسي البدلة ،
وعاودته أفكار السوء . أما الشيخ فقال وكأنما يخاطب آخر :

— سئل « أ رأيت رقى نسترقبها ودواء تتداوى به هل يرد
من قدر الله ؟ » فأجاب « انه من قدر الله ا » .

— ماذا تعنى ؟

فقال وهو يتأوه أسفا :

— لم يكن أبوك ليخلق عليه قولى أبدا !

فقال سعيد بشيء من الحدة :

— من المؤسف أننى لم أجد عندك طعاما كافيا ، كما هو
مؤسف أننى نسيت البدلة ، كذلك عطفى يتعذر عليه فهمك ،
وسأدفن وجهى فى الجدار ، ولكنى واثق من أننى على حق ..
فقال باسم فى رثاء :

— قال سيدى « انى لأنظر فى المرأة كل يوم مرارا مخافة
أن يكون قد اسود وجهى » ا

— أنت ؟ !

— بل سيدى نفسه !

فتساءل ساخرا :

— فكيف ينظر الأوغاد فى المرأة كل ساعة ؟ ا

وحنى الشيخ رأسه وهو يرتل « ان هى الا فتتك » .
وأغمض سعيد عينيه وهو يقول لنفسه « انى متعب حقا ولكن
لنى يهدأ لى بال حتى أجيء بالبدلة » .

الفصل الثامن عشر

وأذاب الارهاق ارادته فنام رغم تصميمه على احضار البدلة . واستيقظ قبيل الظهيرة فكان عليه أن ينتظر الليل . وفي أثناء ذلك رسم خطة للهرب ، ولكن كان عليه أيضا أن ينتظر حيناً من الدهر حتى يغمض البوليس عينه عن منطقة طرزان وهو قطب الخطة . وبعد منتصف الليل ذهب الى شارع نجم الدين فرأى ضوءاً في نافذة الشقة . حلق في النافذة مذهولاً حتى تأكد مما يرى . ارتفعت دقات قلبه حتى أصمت أذنيه . واكتسحته فرحة فاقتلعته من دنيا الكابوس . نور في الشقة . أين كانت ؟ ، سيعرف أسباب غيابها ولكنها عادت . هي الآن تتساءل عن مكانه وتعانى لفحات الجحيم الذى احترق فيه . ان قلبه يؤكد له عودتها ، قلبه الذى لا يكذبه قط . وهموم التشرد ستتلاشى الى حين وربما الى الأبد وسيحتويها بين ذراعيه بكل قوة ويعترف لها من قلب ممزق بالحب الأبدى . وتسلك الى داخل البيت نشوان بالسعادة والنصر ، ورقى في السلم وهو يحلم بدرجات من النصر لا حد لها ولا حصر . سيهرب ويستقر طويلاً ثم يعود يوماً لينكل بالأوغاد . واقترب من باب الشقة وهو يلهث . أحبك يا نور ، بكل قلبي أحبك ،

وأضعاف ما أعطيتني من حب ، سأدفن في صدرك ضياعي
وخيانة الأوغاد وجفول ابنتي . وطرق الباب . وفتح الباب عن
وجه رجل ! . رجل قصير في ملابسه الداخلية . تبخر سعيد فلم
يبق منه الا رماد . وحملق فيه الرجل بدهشة وهو يتساءل :
— من حضرتك ؟

وسرعان ما حلت محل النظرة المتسائلة نظرة شك وارتياح .
أيقن سعيد أن الرجل سيعرفه . ودون تردد سد فاه بيسراه
ولكمه بالأخرى في بطنه . وتلقاه بين يديه فأنامه على العتبة كيلا
يحدث صوتا . وفكر في اقتحام الشقة تنقيبا عن البدلة ولكنه
لم يكن متأكدا من خلوها . واذا بصوت امرأة يتساءل من
الداخل :

— من الطارق يا معلم ؟

وتحول عن موقفه يائسا ، فقطع السلم وثبا حتى بلغ
الطريق . وشق طريق المصانع الى طريق الجبل . وهناك شك في
أشباح تتحرك فلبد عند أسفل جدار وانطرح على وجهه . ولم
يستأنف سيره الحذر حتى خلا الطريق من أى أثر لانسان .
وتسلل مرة أخرى الى مسكن الشيخ قبيل الفجر . وكان الشيخ
في ركنه يترقب الأذان . وخلع بدلته وتمدد فوق الحصيرة دافئا
وجهه في الجدار رغم يأسه من نوم قريب . وقال له الشيخ :
— نم فالنوم عبادة لأمثالك ..

فلم ينبس ، ونادى الشيخ بصوت خافت « الله » . وظل

مسهدا حتى أذن الفجر ، ثم ظل مسهدا حتى ترامى صوت بياح
 اللبن . ولم يدرك أنه نام الا عندما رقد فوق صدره كابوس .
 ولما فتح عينيه رأى ضوء المصباح الوانى منتشرا فى الحجرة
 كالضباب . اذن لهم ينم الا ساعة على الأكثر . والتفت نحو
 فراش الشيخ فوجده خاليا ، ورأى على كتب من كتبه المكونة
 شواء وتينا وقلة ماء . شكرا لك يا مولاي ولكن متى جئت
 بهذا الطعام ؟ . وسمع خارج الحجرة أصواتا فعجب لذلك ،
 وزحف على أربع نحو الباب الموارب فنظر من زيقه فرأى
 لدهشته أهل الذكر يفترشون الحصر ، كما رأى عاملا يوقد
 الكلوب فى أعلى الباب الخارجى . رباه انه المغيب لا السحر كما
 توهم . واذن فقد نام طيلة النهار وهو لا يدري . يا اه من نوم
 عميق حقا . وأجل التفكير فى أى شىء حتى يأكل فالتهم الطعام
 وشرب حتى روى . وارتدى البدلة ثم أسند ظهره الى كتبه
 ومد ساقيه الى الأمام . وسرعان ما ازدحمت رأسه بالبدلة
 الرسمية المنسية والرجل الذى فتح له باب الشقة وسناء ونور
 وراءوف ونبوية وعليش والمخبرين وطرزان والسيارة التى
 سيخترق بها الحصار ، عصفت جميعا برأسه . ليس الصبر فى
 صالحك ولا التردد . وبأى ثمن يجب أن تتصل بطرزان الليلة
 ولو ذهبت اليه زحفا فوق الرمال . غدا سينطح البوليس
 الصخر ويركب الرعد الأوغاد . وسمع فى الخارج يدا تصفق
 واذا بأصوات الرجال تسكت ، وجلال الصمت يسود . ويردد

الشيخ على الجنيدى ثلاثا « الله » فردد الآخرون النداء في نعمة
رسمت في مخيلته حركة الذكر الراقصة . الله .. الله .. الله ،
وازدادت النعمة سرعة وارتفاعا ثم اختزالا مع زيادة في السرعة ،
كصوت قطار منطلق ، وتواصلت دون انقطاع فترة غير قصيرة ،
ثم أخذ يداخلها الوهن رويداً ثم التراخي في الايقاع والبطء ،
ثم ترنحت وتهاوت في الصمت . وعند ذلك علا صوت رخيم
مترنما :

واحسرتى ، ضاع الزمان ، ولم أفز
منكم ، أهيل مودتى بلقاء
ومتى يؤمل راحة من عميره
يومان ، يوم قلى ، ويوم تناء
وارتفعت التأوهات في الأركان ، ثم ارتفع صوت آخر
يترنم :

وكفى غراما أن أبيت متيما
شوقى أمامى والقضاء ورائى
واتشرت التأوهات مرة أخرى . وتتابع الغناء حتى صفقت
اليد داعية الى الذكر من جديد . فتردد اسم الله بغير انقطاع .
واستسلم للسمع ، وزحف الليل . ثم ركضت الذكريات
كالمسحوب . تمايل غم مهران الأب مع الذاكرين وجلس الغلام
عند النخلة يراقب المشهد بعينين مشدوهتين . والبتقت من
الظلمات أخيلة عن الخلود في كنف الرحمن . وومضت آمال

باهرة نافضة عنها تراب النسيان . وتحت النخلة الوحيدة بشارع
المديرية ندت همسات ندية كأفراح الفجر . وتكلمت سناء
الصغيرة في حضنه بلغة فطرية ساحرة . ثم هبت أنفاس متقدة
من أعماق الجحيم توالى بعدها الضربات . وامتدت أنغام
المنشد وآهات الذاكرين . ومتى يؤمل راحة ، وضاع الزمان
ولم أفز ، والقضاء ورائى . وهذا المسدس المتوثب فى جيبى له
شأن . لا بد أن ينتصر على الغدر والفساد . ولأول مرة سيطارد
اللص الكلاب .

وفرق صوت مزعج تحت الكوة وحاورته أصوات :

— يا خبر ، الحى كله محاصر ..

— ولا أيام الحرب ا

— سعيد مهران ..

انكمش فى تكهرب ويده تلتصق بمسدسه ، وتحفزت فيه
كل جارحة . وأجال فى المكان نظرة زائغة . مكان مزدحم وفيه
اغراء للمخبرين . يجب ألا تسبقنى الحوادث . انهم يتفحصون
الآن البدلة وهناك الكلاب . وأنت هنا عار معرض للأبصار .
وان يكن طريق الصحراء ملغما فعلى خطوات يقع وادى الموت .
وسأقاتل حتى الموت . ونهض مصمما مقتربا من الباب . الجميع
غارقون فى الذكر والممر الى الباب خال . ومرق من الباب
ومضى نحو الطريق . ومال يسرة وهو يسير فى هدوء مصطنع
ثم انحدر فى طريق المقابر . الليل راسخ ولكن القمر لم يطلع
والظلام جدار أسود يسد الطريق . وغاص وسط القبور فى تيه

من الفناء لا يهتدى بشيء . وتخبط في سيره لا يدري ان كان يتقدم أم يتأخر . ومع أن بارقة أمل واحدة لم تومض الا أنه طفح بحيوية خارقة .. وترامت اليه مع النسيم الدافئ ضوءاء . وثمنى أن يختنى في قبر ولكسنة لم يكف عن السير . وكان يخشى الكلاب ولكن لم يكن في وسعه حيلة ولا في طاقته أن يقف . وبعد مسير دقائق وجد نفسه في الصف الأخير من القبور ورأى أمامه منظرا غير غريب . انه مدخل القرافة الشمالي فيما يتصل بشارع نجم الدين . أجل هذا هو شارع نجم الدين ، وهذا هو البيت الوحيد القائم فيه ، وهذه هي الشقة ، وها هي النافذة مفتوحة ينبعث منها نور . وأحد البصر فرأى في النافذة امرأة ، ها هو رأسها مطموس المعالم . ولكنه يذكره بنور . وخفق قلبه خفقة مزلزلة . هل عادت نور ؟ ، أو أن عينيه تخدعانه كما خدعه قلبه بالأمس ؟ ! بت لعبة في أيدي الخدع وهذا نذير بالنهاية . وان تكن هي نور فما يريد الا أن ترعى سناء اذا حم القضاء . وقرر أن يناديها على ما في ذلك من مخاطرة . وقبل أن يخرج الصوت من حلقه ترامى من بعد نباح كلاب ، ثم تتابع في الصمت كالطلقات المتفجرة . وتراجع في فزع . وأوغل بين القبور والتباح يشتد ؟ وألصق ظهره بقبر ثم أشهر مسدسه وهو يحمق في الظلام موقنا بدنو الأجل . أخيرا جاءت الكلاب وانقطع الأمل . ونجا الأوغاد ولو الى حين . وقالت حياته كلمتها الأخيرة بأنها عبث . ومن المستحيل تحديد مصدر التباح الذي ينطلق مع الهواء في كل موقع . ولا أمل في

الهروب من الظلام بالجرى فى الظلام . نجا الأوغاد وحياتك
عبث . واقتربت الضوضاء والنباح وقريبا تتردد أنفاس الحقد
والتشفى على وجهك . وحرك مسدسه فى غضب والنباح يشند
ويقترب . واذا بضوء ساطع باهر يغمز المنطقة فى حركة دائرة
فأغمض عينيه وارتمى أسفل القبر . وهتف صوت فى ظفر :
— سلم ، لا فائدة من المقاومة ..

وارتجت الأرض بوقع الأقدام الثقيلة المطوقة وانتشر الضوء
كالشمس :

— سلم يا سعيد ..

اشتد التصاقه بالقبر متأهبا لاطلاق النار ودار رأسه فى كل
مكان . وصاح صوت وقور :

— سلم ، وأعدك بأنك ستعامل بانسانية ..

كانسانية رءوف ونبوية وعليش والكلاب !

— أنت محاصر من جميع الجهات القرافة كلها محاصرة ،

فكر جيدا وسلم نفسك ..

واطمأن الى أن تنائر القبور يحول دون رؤيته فلم يتحرك

وصمم على الموت . وتساءل صوت فى حزم :

— ألا ترى أنه لا فائدة من المقاومة ؟

وشعر باقتراب الصوت عما قبل فصاح مكرها :

— الويل لمن يقترب ..

— حسن ، ماذا تنوى ؟ ، اختر بين الموت وبين الوقوف

أمام العدالة .



فصرخ بازدرء :

— العدالة !

— أنت عنيد ، أمامك دقيقة واحدة ..

ورأت عيناه المعذبتان بالخوف شبح الموت يشق الظلام .
وجفلت سناء بلا أمل . وأحس حركة غادرة فاستشاط غضبا
وأطلق النار . وانهاled الرصاص حوله فخرق أزيه أذنيه ،
وتطاير نثار القبور . وأطلق الرصاص مرة أخرى وقد ذهل عن
كل شيء فانصب الرصاص كالمنطر . وفي جنون صرخ :

— يا كلاب !

وواصل اطلاق النار في جميع الجهات .

وإذا بالضوء الصارخ ينطفئ بغتة فيسود الظلام . وإذا
بالرصاص يسكت فيسود الصمت . وكف عن اطلاق النار بلا
ارادة . وتغلغل الصمت في الدنيا جميعا . وحلت بالعالم حال
من الغرابة المذهلة . وتساءل عن ... ولكن سرعان ما تلاشى
التساؤل وموضوعه على السواء وبلا أدنى أمل . وظن أنهم
تراجعوا وذابوا في الليل . وأنه لا بد قد انتصر . وتكاثف الظلام
فلم يعد يرى شيئا ولا أشباح القبور . لا شيء يريد أن يثرى .
وغاص في الأعماق بلا نهاية . ولم يعرف لنفسه وضعا ولا موضعا
ولا غاية . وجاهد بكل قوة ليسيطر على شيء ما ، ليبذل مقاومة
أخيرة . ليظفر عبثا بذكرى مستعصية . وأخيرا لم يجد بدأ
من الاستسلام فاستسلم بلا مبالاة .. بلا مبالاة ..

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

الطبعة الأولى

		١٩٣٢	(مترجم عن الإنجليزية)	مصر القديمة
١٩٦٣	الطبعة الرابعة	١٩٣٨	مجموعة أقاصيص	همس الجنون
١٩٦٣	» »	١٩٣٩	قصة تاريخية	عبث الأقدار
١٩٦٤	الخامسة	١٩٤٣	» »	رادوبيس
١٩٦٤	» »	١٩٤٤	» »	كفاح طيبة
١٩٦٢	» »	١٩٤٥		القاهرة الجديدة
١٩٦٥	السادسة	١٩٤٦		خان الخليلي
١٩٦٥	السادسة	١٩٤٧		زقاق المدق
١٩٦٣	الرابعة	١٩٤٨		السراب
١٩٦٥	السادسة	١٩٤٩		بداية ونهاية
١٩٦٤	الخامسة	١٩٥٦		بين القصرين قصر الشوق السنكرية
١٩٦٢	» »	١٩٥٧		
١٩٦٤	» »	١٩٥٧		
١٩٦٤	الثالثة	١٩٦١		الاص والكلاب
١٩٦٥	» »	١٩٦٢		السمان والحريف
		١٩٦٣	قصص قصيرة	دنيا الله
١٩٦٥	الثانية	١٩٦٤	رواية	الطريق
		١٩٦٥	قصص قصيرة	بيت سيء السمعة
		١٩٦٥	»	ثلاثة فوق النيل
		١٩٦٦	رواية	الشحاذ

تحت الطبع :

أولاد حارث ما
ميرامار
»

Bibliotheca Alexand



0655602

دار مصر للطباعة